

إمنحوني فرصة للكلام

د. محمد جمال طحان

الدكتور محمد جمال طحّان

امنحوني فرصةً للكلام

امنـحونـي فرصةً للكلام

أخلع الوعي كي أعيش

عندما تكون قادراً على رؤية الأشياء كما هي، بوضوح شديد، وأنت تتجول في الوطن العربي الكبير؛ تكبر مأساتك، وتصبح معرّضاً أكثر من سواك للجنون.

البصيرة النافذة وبالٌ على صاحبها إذا كان من مواطني العالم الثالث، لأنه محاصر ويعرف أنه محكوم عليه داخل بلده بملايين العوائق التي تمنع ملكاته الفذّة من الانطلاق كي يتمكّن من إبداع العالم وفق رؤاه الشفيفة. كما أنه يقطن بلداً محاصراً بحيتان العالم الجديد.

عندما تخرج إلى الشارع في الصباح، لاتنسَ أن تقفل على عقلك في أحد أدراج المكتب قبل أن تخرج، لأنك إذا خرجت به لابد أن تفقده من خلال احتكاكك بالعالم الخارجي الموحل.

تلال القمامة تنبئك عن كمية الطعام التي ظلّ أصحابها يُعلَفون بها حتى آخر الليل، كي يتمكّنوا من نسيان واقعهم، وكي يسود نومهم الشخير خوفاً من أن يحلموا بالحرية، بعدما غدا ممكناً، بفضل التقنية الحديثة، كشف الأحلام.

تتجاوز فوضى القمامة، وتقفز في الشوارع قفزاً كالأرنب المذعور خوفاً من السقوط في إحدى الحفر التي ابتدعتها إحدى المؤسسات لإصلاحات أعطالها ثم نفدت ميزانية إعادة الردم بعدما سُرقت ثلاثة أرباع الأموال المخصصة للعمل. فُتح التحقيق لمعرفة السارق، ثم نسيت المحاكم إكماله أو إغلاقه بسبب تنقلات القضاة المستمرة حرصاً على النزاهة، بعدما اكتشف أولو الأمر أن خير مصلح للقضاء هو القضاء على المنصب الأبدي للقضاة.. إنهم ينقلونهم قبل أن يتعرّفوا إلى مفاصل الارتزاق في منصبهم الجديد.

تغضّ الطرف عن ذلك كله، وتتناسى فظائع السير الضائع بين سائقي السيارات وشرطة المرور.

تصل الدائرة التي تصعدها، تدوخ بين الموظفين، ترشّ الرشاوى كمن يعيّد أبناءه الكثيرين.

تعود إلى البيت لتأكل ماتّفق، فلا الدخل يعين على شراء الحاجيات، ولا الزوجة قادرة على الطبخ بعد عمل مضن تقضيه خارج البيت للمعونة في المصروفات الكثيرة.

تجلس إلى التلفزيون، تدير المؤشر إلى أي محطة عربية تسمع الأخبار، يطالعك المذيع بلهجته الصارمة: استلم الأمير عشرات برقيات التهنئة من دول العالم، تشيد بقيادته الحكيمة التي جعلت البلاد تضاهي أعظم الأمم في تطورها ونمائها، بفضل سهر صاحب الفضل على راحة مواطنيه وأمنهم ورخائهم.

لاتشتم المحطة ... لاتشتم المذيع ... راقب ضغطك ... إذا كان مرتفعاً بهذا يعني أنك أخطأت بإخراج عقلك من خزانته.

لاتجرب محطة أجنبية، لأن الوضع سيغدو أكثر تفاقماً، سترى صورتك وقد كُتب تحتها: إرهابي، مطلوب القضاء عليه وعلى البلد الذي يؤويه.

سل مجرباً واستمع إلى نصحه، كي تحافظ على عقلك... ضع CD لفيروز واكتفِ بغزليات أبي ريشة ونزار.

اترك السياسة لأهلها، والثقافة لأهلها، والحرية لأهلها، والحياة لأهلها، واكتفِ بالعيش، ولا تنم إلاّ بعد عشاء ثقيل. ولا تنسَ ... اخلع الوعي قبل النوم، وقبل أن تستيقظ أيضاً خشية أن تداهمك أحلام الحرية فتصبح في (خبر كان) منصوب على ماكان يُنصب عليه الأحرار في زمن خلفاء الدولة المريضة، الذين تركوا أحفادهم لك بالمرصاد.

عندما تكون كاتباً

لو كنت ضابطاً، ماكان ليستطيع أن يفعل مافعل. بل كان سيحاول التودّد إليّ، ومن المؤكد أنه سينحني لـ... – عفواً – من أجل أن يحصل على رضائي لأخفّف عنه عبء العمل، أو لأمنحه إجازة يزور فيها أسرته... بل ماكنت لأسمح له أن يسكن في الطابق الذي يعلو طابقي... لأنه جندي وأنا ضابط.

ولكنني لست ضابطاً، وهو ليس جندياً عندي، ولهذا فعل مافعل.

عندما كنت في الصف العاشر، شرح لنا مدرب الدفاع المدني أهمية أن يكون المرء عسكرياً، فالمزايا التي يحصل عليها كثيرة... يأخذ راتباً جيداً... يحترمه الناس.. ويتجاوز المرور في الازدحام. في الفرن يأخذ خبزه بسرعة ويمضي... وفي وسائط النقل يقدّم له الناس أدوارهم .. الشرطة المدنية لاعلاقة لها معه .

وكنت أعرف أيضاً أن بإمكان العسكري أن يتخطى شارة المرور من غير أن يجرؤ شرطي المرور على مخالفته .. الناس لايحترمونه فقط، بل يهابونه أيضاً .. وياويل من يدوس له على طرف .

حين سألت مركز التطوّع قالوا: تأخذ راتباً مقداره أربعمائة ليرة كاملة، وتصبح رقيباً بعد ستة أشهر.. ولك مؤسسة خاصة من أجل التموين والدخان .. بأسعار مخفّضة .

قلت في نفسي: هذه فرصة جيدة .. أتخلّص من الدراسة المملّة ومن سيطرة والدي، ويمكنني فوراً أن أتزوج الفتاة التي أحب .

حين سألت والدي عن رأيه بعزمي على التطوع، قال: اصطفل.

وكنت على وشك أن (أصطفل) لولا أنني – بعد أيام قليلة – رأيت بأم عيني ضابط الفتوة ينهال بالضرب على تلميذ، لمجرّد أنه يرتدي قميصاً أحمر تحت بزّة الفتوة... كان يضربه على وجهه بكلتا يديه وبعنف شديد.

لذلك كرهت أن يكون المرء ضابطاً ... وتراجعت عن قراري.

ستقولون أني غبي... لاتقولوا ذلك... أعرف أنني مجرد رقيب قادم... أو مشروع رقيب ولست ضابطاً.. أعرف ذلك .. لم أنسَ أنني سأصبح رقيباً إذا تطوّعت .. ولكنني – لاشك – سأدرس لآخذ الثانوية ومن ثم أقدّم طلباً كي أتحوّل إلى سريّة الضباط... الوضع يصير أسهل حين يكون المرء طالباً يأخذ أربعمائة ليرة كل شهر... يدخّن بسعر مخفّض ويتزوج من يحب.

ولكنّني – على كل حال – لم أتطوّع .. ولم أغدُ لا رقيباً ولا ضابطاً، والمارديني لم يصبح عسكريّاً عندي.. ولهذا تجرّأ جاري صلّوح المدهّن وسكن الطابق الذي يعلو طابقي.. ثم تمادى في جرأته وفعل مافعل.

لو كنت رئيساً للبلدية، كان سيقدّم الشكوى ضدّي وسترُفع – بالنهاية – إليّ، فأمزّق شكواه أو – عفواً – أمسح بها ...

ستقولون – مرة أخرى – إنني غبي.. نعم .. في هذه أنتم محقّون .. لو كنت رئيساً للبلدية ، ماكنت لأسكن هنا ... ثم ماكنت لأنصب عريشة فوق شرفتي المكشوفة .. لأنني – كما تظنون تماماً – كنت منحت بعض الاستثناءات .. وتغاضيت عن بعض التجاوزات.

وسيشرّف أي متعهّد أو تاجر بناء أن يقدّم لي أرضاً في المكان الذي أحبّ .. ومن خلال الدخل الإضافي الذي يتمتع به رئيس البلدية في (هيروس) يستطيع خلال أسبوع أن يبني أفضل (فيللا) في منطقة (طسوا قرش)... ولكنني لست رئيساً للبلدية، ولذلك فعل مافعل.

طبعاً عنده أموال كثيرة جاء بها من ماردين – مسقط رأسه – من خلال إتجاره بالـ... والعياذ بالله. بدر جزءاً تافهاً منها ليهدم العريشة فوق رأسي ورأس أجدادي الذين تمتد سلسلتهم إلى (سلدنا) حيث قدموا مفاتيحها صاغرين وولّوا الأدبار وهم يحمدون الله أن أمراءها لم يطالبوهم بالإيجار عن الفترة التي قضوها هناك.

لهذا هدم شجرة العائلة حين أزال العريشة واستراح. والذي ساعده على ذلك هو طبيعة عملي. فالكاتب صار ممسحة للجميع... الناس يطالبونه : أنت متعلّم .. فهمان .. تستطيع أن تعبّر بأسلوب لبق مقنع .. قل للحكومة إن الرواتب لاتكفي .. وأن الموظف يعمل ليل نهار حتى (ينتعل سلسفيل أبيه) ثم تقدّم له الحكومة راتباً شهرياً لايكفيه (أسبوع).. المجاري تصعد حتى الطابق الثاني في أكثر الأحيان، لأنها لم تصمَّم بشكل يراعي الكثافة السكانية والتوسّع العمراني .. الناس غرقوا بالرشاوي .. (والعترة) على المسكين – المعلّم وأمثاله الذين ليس لديهم باب يرتشون منه، ومع ذلك سُدّت عليهم منافذ التعليم الخاص والدروس الخاصّة والدورات.

نعم – والله – مالكم عليّ يمين – قال لي صحفي يعمل في جريدة (ريهامج) الرسميّة :

ياأخي (طفرت) .. مالك عليّ يمين .. والله لو استطعت أن أرتشي أو أسرق لما قصّرت .. ولكنَّ الأبواب مسدودة بوجهي .. منذ أكثر من عشرين سنة أعمل في هذه الصحيفة .. قلبي بكفّي من أي خطأ قد يحدث .. ومع ذلك ... راتبي .. أخجل من شرح ظروفي ...

وهكذا، كلّما قابلت أشخاصاً من شرائح مختلفة ... يتذمّرون ... ولأنّني لاأجرؤ على كتابة شيء مما أسمع .. أكتفي بأن أشاركهم أحزانهم ..

نعم .. لاتسخروا مني، ... ماتفكّرون به صحيح وأعرفه تماماً : حتى لو تجرّأت وكتبت.. لن تجرؤ أي صحيفة أو ناشر على إذاعة ماأكتبه ... الأعذار – تعرفونها طبعاً – لقمة العيش والحرص على استمرار مورد الرزق فما فائدة الكلام.

صحيح مافائدة الكلام .. لأنّني – من جهة أخرى – مطالَب من الحكومة ... لا... لا... ليس من الحكومة بالتحديد .. إنّني مطالَب من أي شخص أقابله .. ليس وزيراً أو مديراً بطبيعة الحال .. ولكن أي قارئ في دار نشر، أو مسؤول عن أي صفحة من الجريدة ، أو أي برنامج إذاعي .. أو ماشابه..

أي واحد منهم أكون مسؤولاً أمامه ويطالبني بشيء من العتب الممزوج بالتعنيف : ياأخي أنت فهمان ... عليك توعية الناس .. هل نستطيع تخريب عقول الأجيال وإفساد تربيتهم من خلال السماح بالدروس الخصوصية التي غدت تجارة .. العلم يجب أن يُحترم كي تتقدّم بلادنا ... هل يمكن أن نرفع الرواتب ومواردنا محدودة وما زلنا نواجه نظاماً عالمياً جديداً غازياً ..؟.. ثم مافائدة رفع الرواتب إذا كان سيتلو ذلك ارتفاع في الأسعار ممّا يؤدّي إلى زيادة التضخّم ..؟ إن التحمّل واجب على كل مواطن في الوقت الراهن ...

وهكذا أمسيت – بوصفي كاتباً – أمسيت ممسحة للجهتين : الناس يحملونني مسؤوليّة شقائهم، ومن يعدّون أنفسهم مسؤولين في الحكومة يحمّلونني مسؤوليّة تبرير تجويع الناس.

ولأنّني مطالَب من الجهتين، تهملني الجهتان معاً : الناس يظنون أنّني بجرّة قلم أستطيع إجبار الحكومة على تغيير سياستها .

والحكومة تريدني أنموذجاً في التحمّل، ويجب أن أكون مثلاً للآخرين في الصبر على المصائب، وإيكال أمري لله في الملمّات، والخنوع إلى ماتؤول إليه أحوالي بوصفه قضاءً وقدراً، وبالطبع لايستطيع أحد الادّعاء بأنه قادر على ردّ القضاء.

ولهذا لم يتدخّل أحد حين هدّ الدهّان القادم من ماردين عريشتي فوق رأسي...

عفواً .. عفواً ... تدخّل الجيران من خلال تشوّقهم إلى ماسيحدث وترقّبهم له : ... الكاتب المرموق لابدّ أن تسانده الحكومة التي لاتردّ له طلباً .. ولهذا ستكون إعادة العريشة بداية مؤشّرات (خاطره) عند الحكومة.

والحكومة تدخّلت أيضاً .. نعم .. لقد استجابت إلى شكوى جاري فوراً وأرسلت كتيبة لهدم العريشة مغتنمة فرصة ممكنة لتطبيق القانون، ولمنحي شرف أن أكون مثالاً للآخرين في الخضوع لمواده التي دُوّنت منذّ ستين عاماً ولم تُتَح الفرصة لتطبيقه حتى الآن...

نعم .. الآن فرصة سانحة ... الماريديني دعم البلدية بدخل إضافي لبعض موظفيها، ومنحها مناسبة كي تخرج من صمتها الرهيب وتجد عملاً لموظفين يتقاضون رواتبهم منذ عقود ولا شغل لهم سوى التوقيع على جداول الدوام والانصراف.

وأنا لست ضابطاً ولا رئيساً للبلدية .. إنّني كاتب .. والكاتب رسول عليه أن يحمل خطايا الآخرين دون تذمّر أو تمرّد ... كما أنّه قوّال .. لايستطيع أن يدعم البلدية .. ولا خوف منه ..

ولو أنه كان مسنوداً أو يده تطول لما وصلت الشكوى إلى المسؤول عن شجرة البلح في هيروس بعد أن غدت ملفّاً عليه آلاف التوقيعات المرصوصة في أوراق كثيرة لايستطيع أن يحملها حمار.

لاشك أنّكم تتساءلون الآن عن سرّ غبائي الذي منحني طاقة على إخباركم بكل هذه القصّة المزعجة..

لا... لست غبياً ... أخبرتكم كل هذه القصّة كي أقنعكم بمطلبي .. كل ماأرجوه منكم أن تقاوموا فكرة إقامة نصب تذكاري لي بعد أن أموت ...

لماذا ؟... لأنّني لاأريد أن أغدو مكاناً أميناً يلجأ إليه من يريد أن يبول ...

لست ضابطاً .. ولست رئيساً للبلديّة ... ولكنّني – أيضاً – لست مبولة للآخرين .

أنا والحقيبة

أحمل الحقيبة كي تحملني .. فيها همومي وآمالي وديوني ..

فتشتها اليوم فوجدت فيها مقالة (برج المدراء) التي تلاقي صعوبة النشر لا صطدامها بمدراء التحرير في الصحف والمجلات .. وفيها وصل أمانة منذ أربع سنين خلت لم يفكر صاحبه بمدى معاناتي المالية كي يبادر إلى إيفائي المبلغ ولو تقسيطاً .. فيها حوار أجري معي مؤخراً.. وكشف بمكافآت لم تصلني من الصحف والمجلات بعد .. فيها مواعيد مع طبيب الأسنان والمحامي و إحدى دور النشر ، وفيها دعوتان من إذاعتي مونتكارلو و حلب أجّلت تلبيتهما لأنني أعاني من اليأس ، اكتشفت مؤخراً أنه بسبب ما في الحقيبة من مؤجلاّت ...

الحقيبة تتعب يدي وضميري .. فهي . بالإضافة إلى وزنها . توهم الآخرين بأنني (باشا) هذا الزمان مما يصرفه عن ملاحظة جراحات روحي ..

مرة حملت كيس الخضار ونسيتها .. ولم أكتشف فقدانها إلا بعد حين.. ولا أدري سبب ارتياحي النفسي لفقدانها .. شعرت بأنني عصفور خرج من قفصه .. ولم تدم فرحتي يومين حتى فوجئت بمن عثر عليها يجدّ في البحث عني كي يتخفف من ثقلها وخوائها من النقود ..

بعد مغادرة عاثر الحظ تفقدتها فوجئت فيها ألفي ليرة إضافية وورقة كُتب عليها : مساكين هم المثقفون .. ينشغلون بالكتابة عن البطالة .. يكتبون وينشرون ثم يقرؤون لأنفسهم ويحزنون ..

عهداً علّي أن لا أسرق متأنقاً يحمل حقيبة .. وسأوصي المتسولين أن لا يقربوهم أبداً..

فتذكرت قول أحد أصدقائي : عندما أراك في الشارع بلا حقيبة ، يصعب علّي التعرف عليك .

وأنا لا أتصور نفسي بلا حقيبة أحملها كي تحملني ..

برج المُدَراء

حين كنت مقيماً في بيروت، اكتشفت هذا الأمر للمرة الأولى. فبعد مضي ثلاثة أشهر على إقامتي في الشطر الشرقي منها، حيث مقر الجامعة التي أكمل دراستي العليا فيها، احتجت إلى كتاب أخبرني المشرف أنه موجود في إحدى مكتبات شارع الحمرا، أي ماصطُلح على تسميته – بسبب الحرب الطائفية – بالشطر الغربي من العاصمة.

ومن مقر الجامعة إلى " الحدود الغربية ؟! " استغرق مسيري عشر دقائق بالتمام والكمال. وهناك ضبطني موظف الحدود متلبّساً بعدم دفع ضريبة الإقامة لدى مديرية مالية الشطر الغربي، وبلّغ رئيسه هذا الاكتشاف الفذّ، ومن موظف إلى آخر، وصلت أخيراً إلى مدير المالية الذي أدرك أنني لن أبدي تجاوباً مع هذه الضريبة المزعومة، شارحاً له أنني دخلت الحدود بشكل نظامي ومعي فاتورة ممهورة بأنني لست بضاعة مهرّبة، ومع أنه لم يعترف بالخاتم الشرقي " للمملكة " ، لم يشأ أن يحوّل المسألة إلى خلاف دبلوماسي بين العواصم العربية، لذلك امتثل إلى إلحاحي واتّصل بالجامعة التي لم تتوانَ عن إرسال (نجدة) بقيادة المشرف على دراساتي لينقذني من براثن البيروقراطية التي جعلتها الحرب الأهلية مضاعفة نتيجة الانشطار.

حينذاك بدأ اكتشافي بأن برج المدراء لايناسبني، كما لايناسب جميع مواليد برج الميزان. وقد عزّز هذا الاكتشاف مخاض زوجتي الذي دعاني إلى الحصول على عِشر صحي في أقرب مشفى إلى مكان سكني، ولسوء الطالع اتّضح لي بعد الولادة أنه المشفى الخاص لمدير الصحة الذي سارع إلى انتزاع فرحي بالمولود حين أشهر في وجهي فاتورة ضخمة مشيراً إلى أن إجراءات الحصول على العِشر الصحي من مشفاه غير سليمة.

حين حكيت الحادثتين لوالدي ضحك قائلاً: مجرد صدفة.

وربما صدفة أيضاً امتناع مديرة البنك عن فتح حساب جارٍ لي في فرعها الموقّر بحجة أنني لاأملك سجلاً تجارياً، وللسبب نفسه امتنع مدير البريد عن منحي صندوقاً في بريده، لأن الصناديق مخصصة للتجار وحسب!.

أما مدير المواصلات السلكية واللاسلكية في احدى المدن العربية فقد امتنع عن تمديد خط هاتفي مؤقّت لي بوصفي صحفياً أحتاج إلى خط سريع. وللأمانة فهو لم ينهرني حين عرضت عليه قرار الاتحاد بضرورة تركيب هاتف، وإنما اكتفى بالقول: " روح يَا ا ا ......".

وبالرغم من ذلك كلّه مايزال والدي يقول لي: صدفة.

ومن مساوئ الصدف أنني حين سارعت إلى دفع رسوم التأمينات على سيارتي (السوزوكي) فوجئت بالازدحام الهائل للمبادرين إلى دفع الرسوم.. أخذت حسبي الله وانتظرت ساعة ونصف بروز ملف سيارتي إلى السطح (سعري بسعر غيري). لكنّ الذي جعل الدم يغلي في عروقي هو ذلك الشخص

الضخم ذي الشاربين الكثيفين الذي دخل إلى المدير .. همس في أذنه .. (وبقدرة قادر) وُضعت إضبارة سيارته فوق كلّ الملفات ... دفع الرسوم وذهب في دقيقتين... فما كان مني إلاّ أن دخلت حرم الموظفين وبدأت أقلّب الملفات... سألني المدير:

- ماذا تفعل؟

قلت له :أبحث عن ملفي.

- ولماذا؟

- كي أضعه على السطح.. (سعري بسعر غيري)

قال لي: ألم تلحظ أنه همس في أذني؟ قلت: بسيطة.. اقترب كي أهمس في أذنك. غضب السيد المدير وأمر موظّفيه بتأجيل ملفّي إلى آخر الدوام. لكنني - رغم ذلك - دنوت منه وهمست في أذنه.. فاحمرّ وجهه وأشار بأصبعه إلى الموظف هامساً (مشّيه)... وغادر الغرفة .

ولم تدهشني مبادرة الحاضرين إلى مصافحتي مهنّئين.

ولست أدري لماذا قفزت إلى ذهني صورة (دريد لحام) في بعض مسرحياته وأفلامه، فاكتأبت.

أيضاً، يقول والدي: صدفة.

لكنه اقتنع - أخيراً - أن الأمر ليس مصادفة حين صودرت سيارتي مع الأوراق بعد أن تعثّرت بها سيارة المارسيدس لمدير النقل.

لذلك لم يعترض والدي حين عدت إلى حلب وقدّمت استقالتي من التدريس كاتباً :

السيد مدير التربية المحترم

تحية طيبة وبعد

أرجو الموافقة على استقالتي.. لأنك صديقي..

ولأنّ برج المدراء لايناسبني، سألت المشرف على الصفحة قبل أن أدفع إليه بمقالتي هذه:

هل لديكم مدير تحرير ؟

قال: لا.. بل لدينا رئيس تحرير..

تنفّست الصعداء وسلّمته المقالة قائلاً:

(من دون زعل) .. برج المدراء لايناسبني.

أوان القرار

أنا أكتب.. أنت تقرأ.. هم يُقتَلون .. وهو يشجب بنصف صوت. أنا أكتب ندمي لأنني لم أحترف القتال، وأنت تقرأ وتتألم لأن الفعل بيد ذاك الذي يهزأ من ندمي ويسخر من ألمك وهو يغمز لأعدائنا: ما الذي تريدونه أكثر من ذلك؟ حوّلت لكم المواطنين إلى رعايا .. ملأت السجون بهم.. جرّدت العاصين من أعمالهم وحاصرت أقواتهم .. مارست كل أنواع الكبت والحرمان.. غسلت الأدمغة بالجملة.. زوّرت التاريخ.. علّبت الكتب المدرسيّة.. أغرقت الأمة بكل ماهو موجّه منكم إليهم.. سرّبت الغوغاء والفوضى والتشويش إلى عقولهم ، مع الحليب المبستر.

لاتغضبوا مني: غداً نجتمع.. نقرر. نشجب.. فنُفرغ الغضب من محتواه، وتعود الأمور إلى مجاريها، كما تشتهون. مصالحنا مشتركة: الأرض ليست لكم.. الوطن ليس ملكاً لي.. لاشرعية لنا معاً، ولكن – لابأس – العظْمة لاتضير إذا كانت تمنع اليأس.. إذا يئسوا صاروا (شمشون)، ونعود غير قادرين على ردّهم. لاتستعجلوا.. تريّثوا .. أجّلوا القتل قليلاً.. أشجب يذعنون.. نسحقهم واحداً واحداً منفردين.

تعلّموا الدرس مني.. عاملوا أعداءكم كالأصدقاء.. حين يأمنون تصبح الضربة أكثر إيلاماً وأدعى للاستسلام.

هذا هو السيناريو الدائم للخصي: أنا أكتب.. أنت تقرأ.. أنت تكتب.. أنا أقرأ.. هم يُسحقون.. وهو يعدّنا جميعاً للذبح بعد أن يقنعنا أن السكّين حادّة لاتؤلم.. وأن الإذعان تضامن على وحدة الوطن. الوطن الذي هو صاحبه وبيده، كما يشاؤون، سوقاً لنفاياتهم.

هذه هي السياسة.. هذا هو الممكن.. هذا هو العقلاني.. في ظل القتل والتدمير وهذا الخراب الهائل أما آن للعقل أن يستريح.. أما آن لهذا التعقّل والاستيعاب أن يأخذ إجازة كي نجنّ قليلاً.. نسلّم أمرنا للغضب.. نعود إلى البداوة التي تنطلق من عقالها ثأراً لخمسين سنة من العقلانية التي أسّست لكل هذا الخراب الشاسع. من بين ثلاثمئة مليون عربي ومئات الملايين من المسلمين: ألا يوجد مئة مليون مجنون قرفوا من التسويف والمماطلة والإذعان... كفروا بالسياسة التي أوصلتهم إلى كل هذا القدر من الإهانة ؟ ألا يوجد مئة مليون قرروا التمرّد على الذين يطعمونهم الفتات في دول، ويجوّعونهم في أخرى، كي يضمنوا ولاءهم الدائم؟ ألا يوجد مليون كاتب قادرين على اتخاذ قرار يناسب الشعوب كي تعيد مجد حضاراتها التليد بعيداً عن السيد الأمريكي وأذياله المحلّيين ؟

دعوة إلـى الجنون

مايحدث في الأقصى.. مايحدث في القدس.. مايحدث في فلسطين.. مايحدث في الوطن العربي (المرحوم قبل ولادته) .. مايحدث في العالم الذي يؤول إلى الخراب.. مايحدث الآن في أي مكان، لم يعد يحتمل السياسة التي تعتمد العقل والعقلانية، ولم يعد يحتمل التروّي لإجراء الموازنات وحساب الخطى. مايجري الآن خروج على أي منطق، ولا يمكن مواجهته إلا بمنطق اللامنطق نفسه حتى يُرَدّ، وإلاّ بقينا نراوح في أمكنتنا نتحسّر على بقايا أمجاد حملها أجدادنا على أكتافهم، ثم أهملها أبناؤهم ببرود يشبه برود جندي صهيوني وهو يقتل طفلاً في حضن أمّه.

عانى لبنان كثيراً من أجل فلسطين، احتلّ الصهاينة جنوبه ودمّر قبلة الثقافة والفكر، واحتلّ الجولان.. والعرب يتفرّجون.. يعدّون الاجتماعات والمؤتمرات.. يدينون ويشجبون ويتوعّدون.

وبإمكانات ذاتية استعاد لبنان عافيته، وبفضل المقاومة التي حطّمت موائد المفاوضات، حُرّر الجنوب وأعطانا دروساً في كيفية استعادة الحقوق. وما تزال بعض الحكومات العربية تفاوض وتصافح وتصالح وتتلقّى الطعنات تلو الطعنات، وما تزال الشعوب العربية مغيَّبة لارأي لها ولا حول.

الآن نفكر بعقد قمة عربية تشجب وتدين، وما تزال الاتصالات جارية لتشكر أمريكا لأنها امتنعت عن التصويت في مشروع إدانة الكيان الصهيوني الذي يقتل الأبرياء، بعد أن تعوّدنا أن يحمل الأمريكان لافتة (الفيتو) ليعترضوا على كل قرار إدانة تصدر من هيئة الأمم المتحدة ضد الكيان الصهيوني.

وما تزال أمريكا تعدّ نفسها المُدافع الأوحد عن حقوق الأمم وعن تنظيم العلاقات بين الدول على أساس من الشرعية الدولية التي هي شرعيتها وحدها وحسب.

أين أمريكا في القرارات الشرعية الدولية التي تدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة ؟

أين أمريكا في الانتهاكات التي تجري ضد العرب داخل حدودهم وخارجها؟.

هل نصدّق أن أمريكا تغيّرت ؟

أمريكا هي أمريكا، تلك التي تجرّأت في أواخر الحرب العالمية الثانية وألقت بقنابلها الذرية على كلّ من هيروشيما وناغازاكي في اليابان كي تتخلّص من عدوّها الصامد، فاحتجّ العالم برهة بعد أن استسلمت اليابان دون قيد أو شرط، ثم نُسي الأمر.

ونُسيت دماء مليون ضحية ومليون جريح، ونُسي الدمار الذي أحدثته أمريكا المتحضّرة التي سرعان ماأعلنت نفسها شرطياً على الدول، بل لقد استطاعت أن تزرع في العالم فكرة أنها المخلص الجديد للكون من كل الشرور، وبخاصة من المسلمين والعرب الذين يتميّزون بالإرهاب.(!)

من هو الإرهابي ومن هو الضحية؟ هل هو الذي يحمل الحجارة ويدافع عن نفسه وعن حقوقه ومقدساته وآرائه بفتات السلاح الذي ترميه الدول التي استعمرته وجزّأته ونهبت ثرواته، أم هو المحتل

الغاصب الذي يتسلّح بالنابالم والأسلحة الالكترونية الذرية والنووية ؟! هل نريد – نحن العرب – الحفاظ على بقايا سمعتنا التي تتمسّك بالسلم وبالسلام؟ وهل نجهد طويلاً من أجل أن يُشطب اسمنا من لائحة الإرهابيين؟

وهل نثق بأن الهيئات الدولية تستطيع الخروج على تعليمات أمريكا التي تمتثل لما يريده الصهاينة ؟

هل يُرجى لنا خير من الجلوس إلى موائد المفاوضات لنقنع الصهاينة أن يكتفوا باغتصاب بعض أراضينا؟ هل يُرجى خير من الاجتماعات والمؤتمرات والمباحثات لإصدار القرارات التي تشجب وتستنكر وتدين؟

هل يُرجى لنا خير من أمريكا التي جرّبناها كثيراً، وما زلنا نأمل بعدم استخدامها حق الفيتو (الذي فرضه الأقوياء) ضد القرارات التي تأمر الصهاينة بالانسحاب وبوقف الإرهاب والقتل والتدمير؟

أيها العرب النجباء .. يامن صبرتم كأيوب وعُذّبتم كسيزيف وعطشتم كصحراء سيبيريا: ألم تتعبوا من الكلام ؟

ألم يَحِن وقت استخدام حق الفيتو على العقل ليتوقّف برهة عن المسالمة والاستسلام؟

ألم يَئِن الأوان كي نشجب التكنولوجيا قليلاً، ونتخلّى عن الكلامولوجيا الإذعانية المراوِغة، لنمارس حقّنا في الدفاع عن أنفسنا ونعلن على أعدائنا الحربلوجيا كي نثبت لهم أننا آدميون ولنا حق العيش أحراراً كراماً آمنين في ديارنا ؟

وإذا كان العقل والعقلانية لم يعودا مجديين، ألا يحقّ لنا أن نمارس الجنون ؟

أحبّوا أعداءكم

مانزال نصحو على صوت فيروز (نحن والقمر جيران...) نقلّب صحف الصباح ببرود ونحن نحتسي فنجان القهوة. نطلّ من الشرفة: حركة السير عاديّة، عامل النظافة يكنس مخلّفات الأمس باعتياد مملّ. وفي السيارة نحاول ضبط بث إذاعة لندن: بلغ عدد القتلى تسعين فلسطينياً والجرحى بالمئات.

يجتمع مجلس الأمن .. يدين.. أمريكا تمتنع عن التصويت.

أثناء العمل نناقش الدعوة إلى عقد قمة عربية، وردود الفعل الرسمية على الحدث. وفي المساء نقلّب المحطات الرسمية : الملوك يفتتحون ... ويدشّنون.. ويزورون مدافن الشهداء ويضعون أكاليل الورود على أضاريح الجنود المجهولين .. ويبتسمون.

وفي لحظة صحو نتساءل: متى نخجل من أنفسنا ونثبت أن العرب ليسوا ظاهرة صوتية وحسب؟..!

الشهداء .. الأسرى.. القدس.. اللاجئون ، قضايا تتطلّب الشجاعة لإعلان حرية الدفاع، وحرية التضامن، وحرية إعلان الجهاد مع صوت أم كلثوم (إلى فلسطين خذوني معكم) بكم أحيا، ومن غيركم أعيش سدىً وكأنني أختار عبوديتي في ظل هوان لايليق بإنسانيتي..

أيها الأحرار آن الأوان كي تحبّوا أعداءكم.

ماالذي يجب أن يحدث حتّى نحبَّ أعداءنا بما يكفي لردعهم عمّا يفعلون؟

لقد تحوّلنا إلى مزرعة للحيوان: نعمل كالثيران، ونُعلَف كالنعاج، وندرّ الحليب كالأبقار، ونُذعن كالخِرفان.

تحوّلنا إلى مصارف لبضائع الآخرين، ومجارير لتصريف نفاياتهم، وسلالم لتحقيق أطماعهم. صُفعنا فأدرنا الخدّ مرّة تلو المرّة.. ولم يكتفوا .. لم يقتنعوا، لأنّ لغتنا في الحوار كانت مختلفة.. السيف هو اللغة الوحيدة التي يتقنها الغاصبون.

عندما نحبّهم مافيه الكفاية، نعمل على إيقاظهم بالسيف كي يرتدّوا إلى صوابهم، ولكي يُردعوا.

إنها فرصة مواتية، إن لم نغتنمها فلن ننهض من كبوتنا أبداً. لقد أوغلوا في العدوان واعتدوا على أخصّ خصوصياتنا مما يتيح لنا مجالاً للاجتماع على صدّهم. لاتنظّفوا القدس من أقذارهم.. لاتمسحوا الدماء عن الجرحى، ولا تدفنوا موتاكم؛ كي لاتنسوا ولا تغفروا ولا تسامحوا.. لاتجلسوا إلى التفاوض والحوار.. الحوار يهدّئ الغضب ويثبط العزائم.

ادفعوهم إلى الجنون والحقد والغضب وازحفوا خلفهم حتى آخر الحدود ولا تتركوهم يأمنوا حتى يلعقوا ماخلّفوه، وحتى يتأكد لهم أن قوة الحق تتغلب على حقّ القوة في آخر المطاف. الآن ليس أوان صلاح الدين أو المعتصم أو سيف الدولة، إنه زمان الشعوب التي تعي أنها وصلت إلى حافّة اليأس، ولم يعد من منقذ لها سواها، والتي تدرك أنها متى هدرت هزمت أعداءها، ووقَت نفسها ذلّ عشرات السنين.

والموت ليس سكون الجسد، ولكنّه سكون الروح، وسكون الكرامة، حيث يعيش الإنسان حياة لاحياة فيها، تضيع في الهروب من الآخرين خوفاً، والانصياع للإهانة والذل صغاراً، وملاحقة لقمة العيش، فينطبق عليه قول القرآن الكريم: (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً) . حيث يموت دنيّاً جباناً غير مأسوف عليه ولا يخلّف وراءه سوى ذكرى الخزي والحرمان.

أحبّوا أعداءكم بكفّهم عن الظلم باقتدار كي تستعيدوا جميعاً كرامة الإنسان.

الرقص على الطريقة الأمريكية

حين كنت أعدّ لأطروحة الدكتوراه، اقترح عليّ أحد المحامين دراسة ظاهرة إحدى الراقصات التي تستخدم الإغراء حين ترقص وحين تمثّل، وقد اتخذت لها اسماً يناسب ممارساتها الدائمة.

ولأن للبحث الأكاديمي حرمته وقواعده، بقيت الفكرة مجرد موضوع للدعابة، وبخاصة أن الراقصة موضوع البحث قد اندثرت بعد حين.

بعد أعوام ظهر كتاب طريف لأحد المحامين في مصر، يدرس فيه تلك الظاهرة تحت عنوان (زمن فيفي عبده) احتوى الكتاب على مجموعة إحصائيات ووقائع فعلية، لكنه لم ير امتداد الظاهرة في العمق وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية.

ماقبل ذيل السنة بقليل مرت على إحدى الفضائيات واحدة من الراقصات اللواتي يمثّلن هذا التيار الخطير.

وقفت برهة أتأمل (الضحك على الذقون) الذي تمارسه الراقصة بدلع لايخلو من سماجة، وأصغي إلى صراخها وممازحتها للجمهور بطريقة تشبه (تشقلب) السعدان وصراخ القردة.

وغدا اليوم كما الأمس، تتعزز فيه مقولة (عولمية) معاصرة في زمانين رديئين، تهزّ الواحدة منهن العالم بقدمها، وتثير عواطف جمهورها بالأخرى، بدلاً من (الأم) الجليلة التي تهزّ العالم باليد التي تهزّ السرير لتعدّ العلماء والقادة الفاتحين.

ويبدو أن السياسة الأمريكية المعاصرة قد استفادت من هذه الظاهرة وراحت تتمثّلها بحيث لم يعد بإمكاننا الحكم على سياستها بمنطق العقل وقوانين الأمم المتحدة وحقوق الإنسان، وإنما نكتفي بمواجهة قراراتها بخفّة تشبه تلك التي نراقب فيها ألعاب السيرك.

وقد يبدو هذا اللعب المكشوف على الحبال، وهزّ الخصر، مجرد جنحة لاتستدعي الاهتمام إذا قورنت بالعهر السياسي الذي تمارسه الصهيونية العالمية والكيان القابع في قلب الوطن العربي مثل شوكة في العين.

والأمرّ من ذلك هو بعض (الزعماء) العرب، وأشباه المثقفين الذي يرون في (هزّ الخصر) نوعاً من الفن، ويسوّغه بعضهم بأنه فن مفيد لتفريغ شحناتنا الداخلية كي نتجاوز الأزمات.

فإلى أين يسير العالم .. أيها الخصر الوفير؟!

الحاوي والحاوية والأمّـة

شيء ما في داخلي يقول لي: ياولد .. كفاك عبثاً ولهاثاً .. مهما عانيت كي تقفز إلى الصفوف الأمامية، فإنّ ذلك لايجديك.. ولهذا أسمّيك عابثاً مثل قطّة تحلم بالطيران. الطريق أمامك مسدودة ولا مجال لتسلّق السلّم الاجتماعي. فأضحك عليه وعلى نفسي وأجيبه:

لاشك أنك مبعوث الشيطان، أو أنك مدفوع من قوىً معادية تهدف إلى تثبيط الهمم من خلال تحطيم أحلامنا كي نستسلم لعبثيّة لاترحم.

ولكنَّ هذا الذي في داخلي لايستسلم لاتّهاماتي، بل ينظر إليَّ بطرف عينه هازئاً: أيها المدعو جمال طحّان.. ياصديقي اللدود.. ألم تتعب بعد من تعرية المفاسد، ومن الدعوة إلى المساواة وتكافؤ الفرص؟ ألم تضجر من سذاجة المطالبة بأن يكون الثواب على قدْر العمل؟ ألم يَئِن الأوان كي تفهم اللعبة فتلعب على الحبال مثل الحواة الذين ترى أنّهم يتصدّرون المحافل لأنهم أتقنوا الازدواجية فمارسوا التملّق، وأمسوا يطالبون بالمشاركة وهم يمارسون السطوة، يُظهرون التهذيب ويمضون في الرذيلة، يمنحون القليل في العلن ليستولوا على الكثير في الخفاء...

شيء ما في داخلي يلكزني كي أكفّ عن التفاؤل بغدٍ مشرق قريب.. ويحثّني على الندم لأنني اخترت طريق المثقّفين الصعب، وطريق الكتابة الذي تحفّ به الأشواك من كل جانب.

شيء ما في داخلي يدفعني إلى الإقرار بأن العلم لايُطعم خبزاً، ولا يأمن صاحبه من جوع ولا خوف. شيء ما في داخلي يفجعني بي متسائلاً : ماجدوى ماتؤمن به وما تحمله من أفكار، وما جدوى ماتعلمه مادمت غير قادر على إيصاله إلى الآخرين كي يتحوّل إلى عمل. الأظافر التي تعتني بها دائماً كي تنشبها في مستنقعات التعفّن لم تعد تجدي لأنّها أدمنت التقليم بدعوى الصراحة القاسية، والمباشرة الفجّة، والعين الوقحة التي تريد أن تقاوم المخرز. شيء ما في داخلي يحاكمني أمامي ويدينني متحدّياً : هل تستطيع حقّاً أن تكتب من الفكر والقلب متجاهلاً موقف الناشر الذي يخاف ممّا يصدر عنهما؟ وإذا فعلت، هل يجرؤ فيوافق على كيّ جراح الأمة كي تلتئم، أم يراعي حرصه على الراتب من خلال انصياعه لرقيب داخلي شرس لاوجود له في الواقع، فيؤوّل كلّ ماتكتبه إلى شأن سياسي، ويحيل كلّ ماتكتبه من الفكر والقلب إلى علبة القمامة وهو ينظر حوله ليتأكّد من أن أحداً لم يضبطه وهو يقرأ كلاماً صريحاً لاينقذ الأمّة سواه ؟

شيء ما في داخلي يتمنّى أن يتغيّر عنوان زاوية (من الفكر والقلب) التي نطالعها في الصحيفة كلَّ صباح لتمسي (كلاماً في كلام)، وإلاّ فلنحكّم ضمائرنا ونقول مايجب أن يُقال قبل أن يفني الخوف الزائف بقايا الأمة التي نحرص على عودتها "خير أمّة أخرجت للناس" وفق قاعدة راسخة (لايصلح آخرها إلاّ بما صلُح به أوّلها) من (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من غير أن نخاف في الحق لومة لائم. فهل من مستجيب ؟

يوميّات الموت اليوميّ

ماذا عنّي ؟

أتواطأ مع حزني قليلاً كي أتنفس من رئةٍ يبنيها الحلمُ على مرمى سراب ، وقليلاً أغمضُ عينيَّ لأبصرَ نفسي فأرى كابوساً يتملّقُني : ماذا تفعل ؟

. أجري .. أجري .. وهذا أجري ؟ ..

ما أتفه أن تلهثَ خلف كرامتك طويلاً ، وطويلاً يصفعك الذلُّ على كلِّ المنعطفات .

أرأيت العالم طوفاناً يحتاجُ الغيثَ لكي يأتيه ؟ هذا أنا أتأجَّجُ من غير ثقاب .

مسجونٌ خلف طوابير الألم المتخفّي .

مسجونٌ من غير كراهية الأبواب . لو كان الباب يواجهني لكسرت جميع ثوانيه ، لو كان السجنُ جداراً لهدمناه .

لكنَّ العالمَ ، هذا العالم يبني أسواراً تحمل أقنعةً تحميها الأسماء اللاَّمعة المتأنّقة تطالعنا في الصحف اليوميّة كلّ صباح ، وتظهر في شاشات التلفاز كلّ مساء .

حتّى في الحلم نراها .. نقبّل .. أيديها .. نتملّقها ونستجديها بأن تشحذَ في اليوم التالي السكّين كثيراً قبل الطعن ، نسألها أن تستغني عن التلويح بعصا الخبز ، وأن تضربّ ضربتها فإمّا وإلاّ..............

نصحو من الحلم على صوت المذياع يصرّح بشديد اللطف : ما أجمل هذا العالم ! بتقدّم في كلّ صباح عشر سنين !! ...

وأنا أبتسم بلا معنى وأصرّح في وجع : حقاً ما أشطر هذا العالم يتطوّر وأنا أتراجع في ركضي لأنّي لم أتعلّم يوماً حمل السكّين .. فمن المسكين ؟؟؟

تصريحات مجنون

في زيارتي الأخيرة لمشفى الأمراض العقلية الذي سمّي تهذيباً باسم أحد أعلام الفكر الذين شهدوا بدايات انهيار الحضارة العربية الإسلامية وبيّنوا عوامل الانهيار ومسبباته، تقدّم إليّ أحد النزلاء قائلاً:

يا أخ.. في وجهك سمات تبشّر بالخير وتدلّ على مدى أناتك وصبرك. تأمّل الرجل ظفر إبهامه برهة ثم تابع القول: هل لديك القدرة على أن تكون صريحاً.. لابأس.. أفهم صمتك وافتعال المجاملة حين تكون في مواجهة العالم الخارجي.. عالم العقلاء الذين لديهم القدرة على إيذائك وهم يبتسمون في وجهك. اليوم الخميس.. وهذا شهر كانون الثاني الذي عانى فيه الموظفون كثيراً بسبب مصروفات العيد.. ولكنهم يتوهمون السرور لأن شباط /٢٨/ يوما فقط هذا العام.. إنه شهر قصير الذيل، ويوفر مصروفات أربعة أيام.

نظر إليّ بهدوء وقال بصوت منخفض: أليس ماقلته صحيحاً ؟

قلت: بلى. قال: يعني عرفت العام والشهر واليوم، فهل أنا مجنون؟

أجبته وأنا أبتلع لعابي: بل إنك أكثر من عاقل، ولكن.. قل لي ماذا تعرف عن الزمان؟

قال بسرعة: نعيب زماننا والعيب فينا. وفجأة علا صوته وهو يسألني: كن صادقاً: هل أنا مجنون؟ إنني عاقل.. ولكن وجودي هنا يوفر عملاً للأطباء لذلك لايخرجونني... أريد أن أسألك سؤالاً : من الذي قص ذيل شباط حتى غدا قصيراً؟ ولم ينتظر الإجابة بل أردف سؤاله بسؤال آخر: هل تعرف معنى نابليون...

إنه ناب الفهد، لكنهم لم يشاؤوا أن يترجموه كي لاينكشف أمرهم ولا تظهر مقاصدهم في نهش جسد أمتنا. ياأخي الترجمة تسبب لهم مشكلة، خذ مثلاً بوش .. يعني فاضي.. يعني الفوارغ.. أي مايجب أن نرميه.. ولكننا نستقبله ونقيم له الولائم ونعوّل عليه في حل مشكلاتنا.

الحق أن الرجل أربكني ولم يترك لي فرصة للكلام، بل تابع حديثاً متتابعاً لم أستطع التركيز إلاّ على بعضه، ولكنني سمعته يقول: أتعرف المعري؟.. أنا أكثر منه تشدداً.. هو لايأكل اللحوم.. ولكنني لاآكل اللحوم ولا أجني على كثير من الفاكهة.. التفاح الأحمر يذكّرني بالخدود.. الكرز يشبه الـ... والدراق أيضاً.. تعرف ماذا يشبه.. كيف أتدنّى للوحشية وألتهم مايجب أن نبقيه للتأمل. صمت برهة.. أخرج زجاجة من جيبه.. سكب لي ملعقة من شيء يشبه الشاي وقال: اشرب.. هذه ملعقة ويسكي.. الوسكي يقوّي القلب.. سمِّ بالله وخذ غبّة منه. الكلب يلعق العظام.. لماذا؟ لكي ينظّفها من اللحم والدم، وحين تعود للحياة .. تعود نظيفة.

تربّع على الأرض وقال: اقعد أستاذ اقعد.. وأجبني بصراحة: هل في كلامي مايدلّ على أنني مجنون؟

قلت له وأنا أتوجّس: يعني.. يوجد شيء من هذا.

قال: هااا.. أنا مجنون وأحكي (شندي بندي) ومن المعلوم أن المجنون لايؤاخذ.. مجنون رسمي.. خذ مني وارمِ بالبحر: بعض الحكومات تخاف من الخوض في الحديث عن الديمقراطية والحرية والعلمانية والمجتمع المدني... بل تخاف من الحديث عن الفساد المنتشر فيها. وفي الحقيقة، هذه الحكومات لاتعرف ألفباء السياسة.. الدول العظمى تترك للناس حرية القول كي تمنع الانفجار. الإسكات يؤدي إلى الهمس وإلى تشكيل بؤر تناهض الحكومة، بينما الإباحة تمارس فعل التنفيس فيكتفي الناس بإفراغ شحناتهم الانفعالية بالقول ولا يمتد ذلك إلى الفعل.

إذا كنت سياسياً ناجحاً فهذا يعني أنك تفعل ماتريده أنت وتجعل الآخرين يظنّون أنك تستجيب لكل مطاليبهم.

نظر الرجل في وجهي برهة وهو يتأمل ملامحي ثم قال:

ولكن.. مع من أتكلم ؟.. عاقل يحكي ومجنون يسمع .

عالم .. مجنون بالصخب

عجيبة هي طبائع البشر، يختارون دمارهم باستمرار ثم يلقون بأعباء انكساراتهم على الآخرين. ومن أسلحة الدمار الشامل ذلك المزاج القبيح الذي يفصح عن نفسه من خلال الضجيج. يساهم بشكل حثيث، ليس في إفساد البيئة وحسب، وإنما في إفناء الذين يعيشون فيها أيضاً، ولا يطالهم القانون.

كلّ يوم تجد سيارة مسرعة تجأر مخلّفة وراءها سحائب من الدخان الأسود نتيجة عطل فيها لايقلّ سوءاً عن أعطال الذي يقودها بسرعة وهو يستمتع بإطلاق عنان (زموره) ويحاول أن يلحّنَ بصخب – أغنية يستمع إليها من آلة التسجيل التي رفع صوتها إلى الحد الأقصى...

وفي محلات العمل أو المنازل تجد شيئاً مشابهاً.. أناس لايستمتعون بالحياة إلاّ من خلال صخب يفرضونه على الآخرين ، مما قد يدفع إلى الجنون. حين قرأت أن شخصًا أمريكياً أطلق الرصاص على جيرانه الذين يصرّون على إقامة حفلات صاخبة كل يوم، لم أندهش لتصرّفه ذاك.

إن للجنون أسباباً كثيرة، من بينها الأصوات المزعجة بشكل دائم. الأسرى في سجون الاحتلال يعانون من تعذيب يحفر رؤوسهم من خلال الأصوات المزعجة العالية التي يطلقها السجّان كجزء من عملية تحاول دفع السجين إلى الجنون أو إلى اليأس من حياته التي يغزوها الصخب. ولكنّنا نحن المسالمين الذين نعيش في أوطاننا، ماذنبنا كي نستسلم إلى التعذيب اليومي الذي ينخر آذاننا وعظامنا عبر الأصوات المزعجة.

إذا كان القطار يشقّ المدينة شطرين ويوقظ أهلها كلَّ يوم عدّة مرّات، ويبثّهم هواءً أسود اللون والطعم والرائحة، فإننا نتحمّل زيارته المؤقّتة من خلال وعد بثّته الجهات المعنيّة بإصدار مخطط تنظيمي جديد للمدينة يتّضح من خلاله فقدان المتحرّك الحديدي من قلبها الذي سينبض بالحدائق بعد نقل الخطوط إلى خارج حدود المدينة.

ولكن من ينقذنا من السيارات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة التي تتوالد كلّ يوم كأخطبوط يلوّث البيئة ويصمّ الآذان ؟

من ينقذنا من أصوات آلات التسجيل والباعة الجوّالين والصناعات الصغيرة التي باتت منتشرة في كل حي ؟

لن نتحدث عن هدر حقوق الإنسان الذي تمارسه الشركات الكبرى، والدول الكبرى، والمافيات... التي تلوّث البيئة وتعمل على تدهور الأوضاع المعيشية والصحّية للدول النامية، وتعمل – باستمرار – على استغلال مواردها الطبيعية وتعامل أهلها وكأنهم عبيد.. بل سأكتفي بالإحالة إلى كتاب صدر مؤخّراً تحت عنوان " من يدفع الثمن ؟ " قامت بتحريره باربرا روز جونستون، وهي عالمة متخصّصة في الانثروبولوجيا البيئيّة، تتحدث في كتابها عن الإطار الثقافي الاجتماعي للأزمة البيئية.

وما يعنينا هنا هو هذا العالم الصغير الذي نعمل على إفنائه غير عابئين بعذابات الآخرين الذين يحتاجون إلى السكينة والهدوء.. العمال الذين يعودون آخر النهار آملين بالراحة.. العلماء الذين يحتاجون إلى الصمت كي يفكّروا جيّداً ... الفنانون.. الأدباء.. تلاميذ المدارس وروّاد الجامعات الذين لايمكنهم أن ينتجوا في محيط صاخب. منذ أكثر من عشر سنوات أذكر صورة لاتفارق ذهني: في إحدى مناقشات رسائل الماجستير في الجامعة، سقط الطالب أرضاً وهو يتلو ملخصاً لرسالته الجامعية، ثم تبيّن أن السبب هو الصخب الذي مارسه جيرانه في حفل زفاف دام حتى الصباح ولم يسمح لصاحبنا بالنوم، فجاء إلى مدرّج الكلّية مصاباً بالوهن مما أدى به إلى الإغماء .

وأذكر قصة للأديب لؤي خليل تحمل عنوان (الصراخ) حيث تصرخ شخصيته من الجوع، وتصرخ أخرى من الألم، .. ولكن أن نُدفع كي نصرخ من الصراخ والصخب والضجيج، فذلك هو العجب العجاب، وما من أحد يتصدّى لهذه المأساة بشكل حازم. ألا يمكن أن نسيّر دوريّات خاصّة تهتم بنظافة المدينة من النفايات والأصوات بحيث تفرض غرامة كبيرة على كل من يلوث البيئة عبر الصورة أو عبر الصوت؟

صديق شعر وكأنه يعيش في عالم آخر حين زار دولة أجنبية ولم يسمع فيها طيلة إقامته (زمّوراً) واحداً، ولم يسمع بالإكراه ما (لا) يطلبه المارة أو الجيران أو المتسوقون.

جرّب يوماً أن تنتبه إلى الأصوات: في الشارع .. في المباني الحكومية.. في المركبات والحافلات والبيوت ... ستصدّق – حينذاك – أن ارتفاع الأصوات هو أحد الأدلة الواضحة على التخلّف. كل من يصدر صوتاً يزعج الآخرين، يبرهن على تخلّفه حتى ولو كان يترنّم بسماع أغنية لأم كلثوم، لأنه – بذلك البثّ الإجباري – يتعدّى على حقوق الآخرين ويصادر حرّياتهم.

إنني – عبر الصحيفة الغرّاء – أناشدكم أن تبتكروا مايمكن تسميته (يوم الهدوء العالمي) كي ندرك الفرق بين الهدوء والصخب.

ألا يحقّ لنا – نحن المعذّبين في الوطن العربي – أن ننعم بالإصغاء إلى صوت الطبيعة الجميل ؟ أيّها المتحضّرون : كفّوا عن الضجيج يرحمكم الله .

أمنيات ضابط صخب

لو كنت علاء الدين وتعثّرت بالفانوس السحري فخرج المارد من قمقمه قائلاً : (شبّيك .. لبّيك .. عبدك بين ايديك) لطلبت منه أن ينشيء كتيبة من ضباط الصخب الذين لايرتشون، ويضعني أميراً عليهم كي أطلب منهم أن يخالفوا بحزم :

- سائق أهوج يحلو له أن يترنّم بمنبّه سيارته من دون سبب وجيه.
- فتاة ترقص داخل منزلها على ألحان أغنية (هشتك بشتك) وتحرص على رفع آلة التسجيل حتى يسمع كل الجيران.
- بائع متجوّل (يبعق) من خلال مكبّر الصوت كي يروّج لبضاعته.
- إمرأة تصرخ في وجه زوجها لأنه لم يشترِ لها (غسالة أوتوماتيك) مثل زوجة أخيه، ولأنه لم يستطع الحصول على مكيّف يلطّف الجو مثل الذي حصلت عليه جارتها (بكيزة)، ولأنه (لايهبش) من وظيفته مثل زملائه مادام موظّفاً، ولأنه مايزال موظفاً حتى الآن.
- بائع في سوق الخضار.. وفي سوق (قطعة بعشرة) وقد سجّل مايروّج لبضاعته وراح يبثّه بصوت عالٍ منتظراً تهافت الزبائن عليه.
- المشتري الذي يبتاع من بائع صاخب.
- عاملة الآلة الكاتبة ذات الصوت المزعج في عصر الحاسوب الصامت.
- رجل ينام على الشرفة وقد ضبط المنبه على الرابعة صباحاً وبجانبه جهاز الهاتف ذي الصوت المرتفع .. الهاتف يرن فيوقظ النائمين.. المنبّه يصرخ فيستيقظ أهل الحي ... وصاحبنا نائم لايوقظه مدفع يُطلق بين جنبيه.
- مسؤول لايسمع كل هذا الصخب، أو يتغافل عنه بحجة الحرص على حريات الآخرين.

ولكنني لست علاء الدين، وليس لدي فانوس سحري، لذلك أستعير اللازمة المشهورة للزميل الصحفي المتأفّف مردّداً معه : ولله الأمر .

سرّي للغايـة

إذا أردت أن تفشي سرّاً ، فما عليك إلاّ أن تبوح به إلى شخص آخر وهو يتكفّل بالباقي . قد تحار دوائر الأمن العالمية في سر إفشاء الأسرار في بيروت وفي حلب . ولكن الحل بسيط : ما عليهم إلاّ أن يزوروا احدى المدينتين حتى يكتشفوا أن للسر فيها جاذبية عظيمة . ومسألة الاكتشاف هذه ليست مستعصية أو صعبة ، فإذا أردت أن تعرف سير العملية فما عليك إلاّ أن تسرّ بشيء ما إلى صديق ولن يمر اليوم إلاّ وتجد سرّك شائعاً في المدينة كلّها . وإفشاء الأسرار صفة تحتملها المرأة عادة ويقوم بها الرجل بفضل المقهى حيث يلوك الناس الأسرار ، ويظن كل واحد منهم أنه وحده يعرف ما لا يعرفه سواه . ولكن المرأة المحرومة من ارتياد المقاهي لا تعدم وسيلة لالتقاط الأسرار وإذاعتها حيث يفعل الاستقبال النسوي فعل المقهى . وقد يحدث ذلك أيضاً أثناء تناول قهوة الصباح عند إحدى الجارات ، وإلاّ فإن الأسرار تنتقل من واحدة إلى أخرى بمناسبة تبادل الأدوار في غسيل الدرج حيث يتم أيضاً تبادل الأسرار . وهكذا ترتفع الحصانة عن السر ليدور ويدور ويدور حتى تكتمل كرة الثلج ويُغطّى جوهرها بما لم يكن فيها أصلاً. ويقوم بعملية هذا التحويل كل من يصل السر إليه ، حيث يضيف إليه لمساته الخاصة ليغدو هو وحده العارف به ، مؤكّداً طبعه بخاتم المبدع.

وتدور الدائرة حتى يصل هذا السر المتعاظم إلى صاحبه فيسمع به وكأنه خبر جديد لا علاقة له به، ويضيف إليه هو الآخر ما شاءت له قريحته من التوابل المستحدثة ويعود إلى بثّه من جديد . ومن هنا تنشأ الشائعات ويُعاد تفسيرها بما يتناسب والأشخاص الذين يتناقلونها مما يؤدّي إلى غياب الحقيقة غياباً مطلقاً ولا نعود قادرين على التمييز بين الوقائع المختلفة ، وتختلط . حينذاك . الحقيقة بالخيال.

ولكن ، هل تناقل غريب الأخبار عادة يختص بها البيروتيون والحلبيون وحدهم من دون الناس أجمعين ؟

ذكر المؤرّخون عن عادات أهل بلاد الشام وصفاتهم أنّهم مغرمون بغرائب الأخبار مما يساهم في تتبعهم للخبر الغريب وصوغه بشكل يجعله يزداد غرابة . وهكذا يرضي بعض الناس فضولهم من خلال تأليفهم ما يشبه الأسطورة التي قد تنتقل من بؤرة واقعية إلى أحاديث أقرب إلى ألف ليلة وليلة ، وقد تكون سيرة عنترة والزير سالم والأميرة ذات الهمّة صيغت بالطريقة نفسها.

ولا شك أن أساليب التعبير الفني تلعب دوراً مهمّاً في تطوير الأدب الشعبي ، ولكنّ المشكلة تكمن في ما قد تسببه مثل هذه الشائعات من مشكلات تقع على رأس من يمسّه السّر . فقد تسبب خلافات زوجية أو خلافات بين الشعوب والقبائل والدول .

ولحسن الحظ قد ينقلب الأمر على ناقل السّر فيغدو ناقل الكفر كافراً ، وذلك عندما يقضي، الذي يستقصي أخبار الآخرين وأسرارهم، عمره في البحث عن فضائح يلوكها وتلوكه ثم يحصد الهواء ، في حين ينشغل الآخرون بأعمال منتجة قد تدخلهم التاريخ.

هذا بخلاف الشائعات التي يروّجها المفكّرون للتعبير عن آرائهم تجاه وضع سلبي يعملون على تغييره . ومن ذلك الشائعات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي يطلقها بعض الناس في الأوقات العصيبة . فقد اعتاد الناس في زمن الحكم الهتلري تداولَ القصة الآتية: مرّ أحد الأشخاص بقرب نهر فوجد رجلاً يغرق ، فبادر لإنقاذه ، وحين صعد به فوجئ به يبتسم قائلاً : ألم تعرفني أنا هتلر .. تمنى علي أمنية أحققها لك، فقال المنقذ : أرجو منك ألاّ تخبر أحداً بأنني أنا الذي أنقذتك . وما هذه القصة المتداولة إلاّ للتشهير بالحكم الاستبدادي الهتلري . وأيضاً تندرج تحت هذا العنوان الطرائف والطرف التي يتناقلها الناس على مدى العصور للتعبير عن مشاعرهم المكبوتة تجاه حالة ما.

فهل يمكن أن نعيد الأدب الشعبي والسير كلّها إلى مسألة عادة إفشاء الأسرار ؟

وهل نفشي هذا السّر أيضاً كي نساهم في إنعاش الأدب الشعبي وإغنائه ؟

إذا أجاب أحدكم على هذا السؤال فرجائي أن يبقي تلك الإجابة سرّاً.

العالم ليس كما ينبغي

يتجوّل رمضان في أزقّة حلب وحواريها غريباً لايكاد يتعرّف عليه إلاّ بعض الناس الذين شبعوا من الدنيا أو قاطعوها منذ زمن طويل..

رمضان يستجلي حضوره بالمحبة ويفخر بكونه مناسبة للتسامح والغفران.. بحلوله يصل الناس ماانقطع بينهم من حبال الود..

يأتي واضحاً جهراً، وحين يراه الناس يتذكّرون تفاهة خلافاتهم، ويبدؤون بإصلاح ماأفسده اللهاث خلف ماكانوا يظنّونه خيراً لهم، فإذا بشهر الخير يفتح بصائرهم ليعوا جمال العالم الذي يتميّز بالنقاء، وبدلاً من اشتهاء مالدى الآخرين، يلحظ المرء الأشياء التي يحتاجونها ويسارع إلى بذل مالديه منها من أجلهم...

لكنّ هذا الذي يفعل ذلك كلّ عام، يشعر بالغربة في قدومه الأخير. الناس يتراكضون ويواصلون صخبهم.. يشتمون الأفعال القبيحة ويمارسونها .. ويتذمّرون..

العالم ليس كما ينبغي.. ورمضان أيضاً يتجوّل في الشهباء هذا العام ليس كما ينبغي، ويتساءل مندهشاً : كم من الأشياء ينبغي تغييرها كي نعود إلى رؤية رمضان واستيعاب فضائله والامتثال إلى متطلّباته وإشاعة المحبة بيننا .. تماماً كما ينبغي ؟ ...

* * *

أمام مدخل جامع الأنوار لفتت نظري فتاة صغيرة تبكي، سألتها إن كانت ضائعة، أجابت بالنفي. وحين رأتني مصرّاً على معرفة سرّ بكائها قالت: أعادت المعلمات هداياي لهن. الهدايا لم تكن ثمينة كهدايا زملائي الذين قدموا (خلاطة فواكه – معصرة برتقال – مجموعة زينة – طقم مناشف..) أما أنا فقد أهديت معلماتي الأربعة ومديرة المدرسة أثواب نوم. والدي موظف قال: اهد المعلمات ورودأ لكنني وفرت /العيديات/ واشتريت خمسة أثواب.. جمعت أربعمائة ليرة ووالدتي أعطتني مئة واشترينا الأثواب، لكن المعلمات قلن لي: احتفظي بهداياك، وأعدنها لي.. وأعدن كل العطور والهدايا الرخيصة التي لم تعجبهن وأخذن باقي الهدايا من رفاقي الآخرين.. لأنها غالية. الآن لن يهتممن بي بعد اليوم ووالدي سيضحك علي لأنه يعلم أن السيد مدير التربية أصدر تعميماً بعدم قبول الهدايا.

قلت لها: لاتتوهمي أيتها الصغيرة.. المعلمة لاتهتم بهذه الصغائر وهي تعلم أن الهدية على قدر الاستطاعة وإلاّ تحولت إلى تسمية أخرى... والمعلمة تهتم بجميع الأطفال وتحب التلاميذ بصرف النظر عن الهدايا ... والمعلمات قبلن الهدايا ولكنّهن أحببن أن يهدينك إيّاها لأن عيد المعلم جاء متوافقاً مع عيد الأضحى المبارك.

مسحت الطفلة دموعها.. حملت كيس الهدايا وهي تشكرني وبدا في عينيها سؤال ينمّ عن عدم اقتناعها بحجّتي، فهل لديكم إجابة أكثر إقناعاً تساهم في إعادة العملية التربوية إلى جادة الصواب لتحقيق أهدافها ؟!..

الحضارة بين الهوية والاغتراب

غدا من البديهي أن يفرّق الناس بين المدنية والحضارة. وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية أثبتت للتاريخ البشري أنها سابقة لم يتم تجاوزها حتى الآن، فإننا مدعوون إلى التشبّه بأجدادنا الذين فرضوا احترامهم على العالم من خلال الحب والعطاء اللذين منحوهما للآخرين من غير تبجّح أو قسر.

قبل عبّاسي مدني وأزمة الفكر الحديث، وقبل أسس التقدم وفهمي جدعان، وقبل الجابري والخطاب العربي المعاصر، تبرز أفكار مالك بن نبي في سلسلته عن مشكلة الحضارة، وبخاصة في كتابه (شروط النهضة) الذي يقول فيه: " لو أننا درسنا الحضارة بالنظرة الشاملة، الخالية من الأوهام... لما وجدناها ألواناً متناقضة. ولا شك في أن عقائدنا السياسية تدين لتلك القيم الفاسدة للمدنية، تلك العقائد التي تمثّلت عندنا اليوم في أسطورة (الشيء الوحيد) أو (الرجل الوحيد) الذي ينقذنا. وحيث لم يتيسّر لنا أن نضع آمالنا في (شيء واحد) فقد وضعناها في (الرجل الوحيد) الذي بيده سعادة الشعب ورخاؤه. إن هذه العقيدة الوثنية التي تقدّس الأشخاص، لازالت منتشرة في بلاد الإسلام، لم نتخلّص منها، .. وإن كنا قد فعلنا شيئاً، فربما كان ذلك في استبدالنا وثناً بوثن... وهكذا ننتقل من وهم لنتخبط في وهم. ولا ندري كم من السنين سوف نقضيها لندرك عجز (الأشياء الوحيدة) عن حل المشكلة... التي هي مشكلة الحضارة أولاً، وقبل كل شيء..".

واليوم نفتح ملفاً جديداً حول الحضارة بين التمازج والصراع، تلك الحضارة التي هي حصيلة إبداع الإنسان وجهده.

ماالذي جعل الحضارة العربية الإسلامية تذوي؟.

وما هي مواقفنا من حضارة الغرب الحديثة؟. وهل نحن اليوم قادرون على تمثّل الحضارة لإعادة توجيهها وفق مانراه من قيم أصيلة رسّخها أجدادنا ونسينا بعضاً منها؟.

وهل بإمكاننا إيقاف تبادل التهم والإدانات لنعمل جميعنا على إعادة نهجنا الحضاري الذي انبنى على توفير الحريات الفكرية، والتعددية، وتعميق القيم الإنسانية الخالدة ؟.

وما المقدار الذي يحمله الإعلام المعاصر من مسؤولية التضليل؟

الحضارة مشروع يتم تداوله بين الشعوب والأمم، وهو لايكتمل إلاّ بمطابقة الأمة بين القول والفعل في أدبياتها الاجتماعية الشاملة.

فهل تشكل هذه الأسئلة وغيرها عبر "الكفاح العربي" منطلقاً لحوارات غنية حول مسائل تهمّنا، أم أنها تمرّ – كغيرها – مرور العابرين ؟

بين الناقة والعولمة

عندما يقف المرء عند حدود القول، لاشيء يتغير في واقعه. وقد آن لنا منذ حين أن نكفّ عن ردود الفعل المنطقية التي تؤدي بنا إلى حيث لانريد.

إننا أشبه بمن يلعب (الشطرنج) أمام محترف ينقلنا حيث يشاء هو مادمنا نلعب وفق قواعد ثابتة محددة بمنطق الآخر وفي لعبة يتقنها أكثر منا.

المربك للمحترف في هذه اللعبة هو الخصم الذي يسير بخططه هو ولا يلتفت إلى خصمه إلاّ بالحدود الدنيا للدفاع. والتساؤل المطروح هنا: ماقيمة (الشطرنج) وقواعده لإنسان منشغل عنه بشيء آخر؟.

ورقعة الشطرنج المقصودة – هنا – هي تلك المصطلحات والمسائل التي توجهنا بمسميات لاتعني لنا شيئاً مادمنا لانعيرها أي اهتمام.

النظام العالمي الجديد.. حوار الحضارات وصراعها.. العلمانية.. وأخيراً (العولمة) .. ماشأننا بذلك كله، وما جدوى مناقشته مادمنا نصدر عن فكر واضح وثقافة راسخة قوامها العرب الذين يحملون لواء الحضارة الإسلامية عبر قرون ؟

لدينا مشروع حضاري جاهز لاتنبغي لنا استعادته كما كان، بل العمل على تطويره مستعينين بتفكير علمي تقني، اقتصادياً وسياسياً وفكرياً.

العالم يتغير من حولنا ويتطور، ولا يستحيل علينا أن نستعين بآليات تطور الحضارة لنسهم فيها كي لانكون أشبه بحرس الحضارة القديمة. نرفض تطور العالم كي لايتضح تخلّفنا. إن عبور القارّات لتلقّي العلم ليس عيباً ولا يشكّل عقدة نقص عند طالبيه، بل هو أمر لابد منه من أجل التطوير.

هل يعقل أن نحصي العدد بحبات (الحمّص) ونتخلّى عن الآلة الحاسبة لأنها من إنتاج الغرب، أم الأجدى هو أن نتعلم تقنية تلك الصناعة وآلية استخدامها وتطويرها؟

لم يكن ابن خلدون مخطئاً عندما قال" إن المغلوب يقتدي الغالب"، وأمامنا اليوم فرصة نادرة للتقدم السريع، ليس باستخدام التكنولوجيا فحسب، وإنما بامتلاكها أيضاً، أي بفهم تلك الشرائح العجيبة التي تقبع داخل (الكمبيوتر).

نريد الحفاظ على تراثنا وخصوصياتنا؟ لابد لنا من فهم مايدور حولنا إذن، ومن تحديد واضح لأهدافنا وإلاّ فما الفائدة من الجمل الإنشائية والسجعية الحافلة بكل الصور البيانية التي تمجّد الأمة والوطن وترد على ألسنة مجتمع غير قادر على إيصال صوته إلى العالم عبر شرائح الكمبيوتر؟ إننا أصحاب حق وتاريخ وحضارة، كلها ضائعة لأن أصواتنا لاتصل إلاّ إلينا، بينما تصل أصوات الصهاينة إلى العالم لأنهم يشتغلون على البحث العلمي ولا ينشغلون عنه بردّات فعل عدائية تجاه التطور العلمي الحاضر. إننا نهمل ذلك كله بالرغم من أننا أصحاب الحديث الشريف (اطلبوا العلم ولو في الصين)،

وننشغل عنه بصراعات داخلية تُناقش العلمانية والعولمة والمجتمع المدني، ونفتح جبهات صراع حول مشروعية قصيدة النثر والقصة القصيرة جداً والنص. ولا ننتبه إلى أهمية النفاذ في ضمائر الآخرين.

إن تراثنا المكتوب بقي مكتوباً على الورق في حين تحولت الثقافة اليوم إلى شيء مبثوث يدخل كل بيت. كم من نتاجنا يدخل عالم الانترنت؟!

في عالم الكمبيوتر والإنترنت والإعلام، إذا أراد شخص في الأسكيمو أن يبحث عنّا... لن يجد شيئاً في عالم الاتصالات... وكل مايسمعه أو يراه من الآخرين يوحي بأن العرب والمسلمين كانوا يعيشون على هذه الأرض.. أما الآن فلا وجود ثقافي لهم... وقد يصورنا الأعداء على أننا مجموعة إرهابية متخلّفة تتصرّف بشكل عشوائي.

وأصحابها ماذا يريدون.. ماهي طموحاتهم.. ماهي أطروحاتهم؟. لاأحد يعلم عنها شيئاً.. ونحن لم نسعَ بعد لإيصال أفكارنا إلى الآخرين. أدوات الثقافة اليوم هي غير أدواتنا، فكيف نُعرف إذاً ؟!. وماذا نحن في عالم العولمة سوى شعب غامض يقبع في مكان ما من العالم، ويتلقى ماتبثه محطات التلفزة والإنترنت في العالم. ماالمشاريع التي نطرحها اليوم؟ كل المحاولات الآن فردية تعتمد على همّة الشخص ومدى تفرّغه ومقاومته ليقدّم رؤيا ومشروعاً ومقولة، أما المنظمات الأهلية ومؤسسات الدولة فهي غائبة عن الفعل الثقافي، لاتشجع أي جهة أي شخص للانضمام إلى مراكز بحث علمي أو أدبي أو فني ليقدم مجموعة مبدعين وجهات نظر حضارة مازال حية حتى الآن وتمثل العرب والمسلمين.

ما الذي نقدمه للعالم مما لدينا ليتضح إبداعنا في عالم اليوم، وكيف فعل ذلك بلا وسائل فاعلة.

وهل نكتفي بالإصغاء إلى صوت العولمة مشدوهين؟ في حين أننا نستطيع تحويل العولمة إلى معطى حيادي شرط أن نسرع في مسألة الحوار الداخلي كي لاننقسم بين تمترس إيديولوجي حداثوي منفلت، ونزعة تبشيرية ترفض كل ماهو قادم لحساب الناقة.

ليس بيدنا وقف تدفق العولمة، ولكن التعامل معها بالطريقة التي نشاء هو مايمكننا فعله.

ترويض العولمة

إن أي محاولة لإغلاق الأبواب أمام العولمة، محاولة فاشلة، لأن العولمة تقتحم الأسوار وتدخل إلينا عبر هذا الشيء الصغير الذي يسمى التلفزيون، بكل أشكال التلقي فيه، من الكمبيوتر والإنترنت والساتلايت وسواه .. وبدلاً من التمترس خلف ذواتنا، علينا أن نعي مايُقدّم لنشارك في حوار معه بتقديم مالدينا أيضاً.

كثير من دول العالم الثالث يحتاج المرء فيها إلى توفير دخله سنة كاملة كي يتمكن من شراء كمبيوتر.. وكثير من تلك الدول تحارب الإنترنت وتمنعه عن مواطنيها مما يجعلهم يتحولون تدريجياً إلى أميين لايتقنون سوى القراءة والكتابة فيظل ثقافة غدت مبثوثة عبر الأقمار الصناعية، ولا يشكل الورق سوى صدى لبعض مايُذاع. ومسألة الوقت أصبحت مهمة في عصر التكنولوجيا الذي يتحول إلى التكنو–اقتصاد. المعلومات تصل خلال ثوان، والدواء يعبر القارات خلال دقائق، وكذلك المبادلات التجارية. فكيف يستقيم لبعض الدول حجب الأجهزة التي تساعد على تطور حياة الإنسان؟

هل يمكن أن يكون هذا الجهاز الصغير مؤذياً تنتفي عنه صفة الأخلاق؟ الآلة شيء حيادي، ونحن نمنحه معناه من خلال استخدامه، ووفق الطريقة التي نتعامل معه بها. كذلك (الديناميت) عندما اكتشفه (الفرد نوبل) عام ١٨٦٦م، لم يكن شيئاً مؤذياً إلى أن بدأ الناس باستخدامه للتدمير. فهل العولمة كالديناميت؟.

سل عيّنة عشوائية في الوطن العربي عن آرائهم بالعولمة تجدهم يرفضونها..

وحين نؤكد عليهم (على طريقة من سيربح المليون) جواب نهائي يقولون: جواب نهائي. سلهم بعد ذلك عن الفرق بين العلمانية والعولمة ... تجدهم لايفرّقون بينهما، ومن هنا يصح القول: (المرء عدو مايجهل).

يورد الباحث عامر مبيض في موسوعته الثقافية (مادة العولمة) قولاً لماجد شدود عن العولمة: " إنها وسيلة لاستخدام معطيات التطور العلمي التكنولوجي التي أوجدتها البشرية من قبل الدول المتطورة لفرض سيطرتها على العالم أجمع ...

ويتابع الحديث قائلاً إن " العولمة تبين سرعة تكيّف الدول المتطورة مع معطيات العلم والتكنولوجيا واستخدامها وسائل فاعلة لتجديد سيطرتها على الأمم والشعوب كافة ".

والآن إذا استبدلنا الجملة الأخيرة بالقول:

لتجديد سيطرتها على العالم من أجل الإنسان. ألا نكون بذلك قد استبعدنا هذا الفرض العدائي المسبق الذي تدحضه خطى العلماء الحثيثة لقهر الأمراض والأوبئة من أجل ألم أقل وأمل أكبر بحياة أكثر هدوءاً...

وزيادة في الموضوعية، لابد لنا من الفصل بين السياسة والعلم أثناء الحديث عن الدول، وبخاصة العظمى منها، فإذا كانت السياسة الغربية أو الأمريكية تسعى للسيطرة على العالم، فإن العلم يعمل على تطوير الحياة وتسهيلها في العالم. ولا بد أن نؤكد – هنا – بأن العلم لايُسأل عما تفعله السياسة. فإذا ارتبطنا بالعلم وعملنا على مجاراة تطوره وساهمنا في تطويره، يمكننا - بالمقابل - أن نكوّن قلعة سياسية تجابه السياسات المعادية التي تحاول أن تهيمن علينا، وبشكل خاص عبر حجب أسرار الاكتشافات العلمية المعاصرة عنّا لنبقى مجرّد سوق لتصريف بضائعها.

إذا قلنا إن أمريكا تعمل على أمركة العالم وفرض نظامها الدولي الجديد بصيغته الرأسمالية وثقافته الليبرالية لترسيخ العولمة، وامتصاص دم الشعوب النامية، فكيف نواجه ذلك؟.

أمامنا إحدى طريقتين: إما أن نحاربها، أو أن نتسلح بالعلم لنصبح أنداداً لكل من يحاول التلاعب بمصيرنا؟. فأي الطريقين ممكنا لنا ؟.

وإذا كنا نعتمد على الصدفة، علينا إذاً الانتظار حتى يحدث خطأ نووي يقضي على أمريكا وعلى التطور الحاصل فيها.

أما إذا تسلّحنا بالعلم فما من طريق أمامنا سوى الإكثار من التحالفات مع الدول الصديقة التي تعاني مثل مانعاني، كي نحوّل العولمة لصالحنا.

إن مايبدو لنا أنه وحش العولمة لايمكن مجابهته بإقفال الأبواب والاحتماء خلف جدران شعارات لاتلغي تهميشنا، وإنما نستطيع استثماره لصالحنا بالعلم، وبه نتمكن من تحويله إلى حصان يعبر بنا إلى القرن الذي بدأ توًّا بسرعته الهادرة. نغدو أحراراً حقاً عندما نستغني بعلمنا عن سوانا.

فياغرا الحداثة

هل يعيد التاريخ نفسه بقناع آخر من خلال المشكلات التي تواجهنا اليوم بأسماء مختلفة، أم أن ماعاناه النهضويون العرب في القرن الماضي يختلف عمّا نعانيه نحن اليوم؟

كان السؤال الأساسي يتعلّق بكيفية النهضة، ثم صار: كيف نتعلْمَن؟ وجرى التنقّل بين الماركسية والإسلاموية والقومية والعثمانية، بوصفها حلولاً نهائية لمشكلات البشر. فهل تُطرح العلمانية – اليوم – وفقاً للمعيار نفسه، وبالطريقة ذاتها؛ أم تُطرح بوصفها دروساً مستفادة من التاريخ؟

ويبقى السؤ ال عبر ميكانيزمات مختلفة يفصح عن مواقفنا تجاه الحداثة، هذا المفهوم الذي نختلف حول مشروعيته لأننا لم نتّفق على المعنى الذي نريده حين إطلاقه. الحداثة ليست (جنزاً) أو (همبرغر) أو قصيدة نثر أو قصة قصيرة جداً أو (كومبيوتر) أو (ستيلايت)... الحداثة – ببساطة شديدة – هي الاستجابة لمتطلبات العصر استجابة سياقية لاتعلو على التاريخ ولا تُحدث قطيعة مع التراث كي لايتحوّل التحديث إلى تغريب ثقافي ينشغل بالايديولوجيا ويهمل التقنية فنغرق في صناعة الكلام بدلاً من صناعة الفعل.

ولأن التحديث – هذا البسيط المعقّد – سؤال كبير لاتحيط به زاوية في صحيفة، سأكتفي بالإلماح إلى أسئلة في الحداثة تدعو إلى تأمل عميق:

ألا تعدّ عملية تقليد الغرب في الحداثة المنجزة تمسّكاً بتراث الآخرين، أم أن تراثنا –وحده – هو المناقض للواقع ولا تتم الحداثة إلاّ بإعدام كلّ مافيه ؟

ألا تشكّل القطيعة مع التراث ظاهرة تنطلق من فكر لاتاريخي تدعونا إلى لبس خوذة الغربي والتفكير برأسه.

ألا ينبغي لنا أن نتّعظ بالتجربة الكمالية التي لازمت بين التقريب والتحديث، فوقعت في فلك الآخر من غير أن تتمكن من السير قدماً على طريق التحديث؟

ألا تعني لنا شيئاً تجاربنا التراثية حيث استفاد المسلمون من الإغريق من غير أن يتغرّبوا؟

ألا يتطلب التحديث تغيراً جذرياً موازياً في طرائق التفكير، والعادات، والأخلاق؟

ألا يفرز ارتداء (الجينز) عادات مرافقة لابدّ منها؟

وكي لانغرق في بحر التساؤلات، وهي تساؤلات مشروعة يفرزها مطلب التحديث، نحاول أن نتلمَّس طريق الحداثة من خلال الأسس التي نفترض أنها تقوم عليها. ولا بد من مراعاة تلك الأسس وعدّها من الأولويات إذا كنا من الواقعيين الذين يستبعدون وجود (فياغرا الحداثة) التي تحقّق المطلوب بمجرد تناول حبَّة منها.

الحداثة تصبح مطلباً جدّياً حين تغدو فعلاً مجسّداً يبتعد عن الشعارات المستهلكة.

تكون حداثياً حين تكافح من أجل الانعتاق من ربقة الشجب والتأييد الانفعاليِّين تقليداً لطغيان الشارع أو استجابة لمن يتحكم به.

وتكون حداثياً بمقدار ابتعادك عن عادة التفكير الغيبي الاتّكالي، واقترابك من العقلانية التي تستجيب لمتطلبات خلافة الإنسان على الأرض.

تكون حداثياً عندما تفكّك الجهاز المستورد لتدرك أبعاد التقنية الداخلة فيه ليغدو بمقدورك أن تصنّع أنت جهاز التكييف الذي تستمتع من خلاله بطقس لطيف.

تكون حداثياً عندما توقف فوراً استيراد آلات القمع والتدمير ونظريات الاستبداد وإحكام السلطة، وتعتني بإقامة الديمقراطية وبممارستها في الحدود القصوى الممكنة التي تطالها صلاحياتك وإمكانياتك.

تكون حداثياً عندما تمارس اقتناعك بأن الأخلاق الحميدة – وحدها – تجعل منك حرّاً قادراً على التجوال في رحاب وطنك بمتعة إنسان لاتُقلق الوسادة راحته لأنه لم يسمح لأحد أو شيء أن يحوّله إلى كائن مثقوب الضمير. تكون حداثياً عندما تحترم الوقت فتنظِّم عيشك في الزمان وتراعي حرصك على أوقات الآخرين، وتفعل ماتراه مناسباً في الوقت المناسب وتطرد من رأسك تلك الفكرة العدوّة التي تسم الموعد المائع (بالموعد العربي).

تكون حداثياً عندما تترك خلفك طريقة التفكير البيروقراطي وتعترف بأن للمبدع حقّاً في التجاوز لايتقدم الوطن إلاّ به.

العقاد والمتنبي وأبو ريشة وغيرهم كثيرون طوّروا الوطن بفعل التجاوز ولم يُسألوا عن تحصيلهم العلمي العالي. وكذلك حين نجد إنساناً مناسباً ليشغل موقعاً قادراً على إدارته بشكل فاعل، لايمكننا أن نتركه ينتظر دخول مسابقات وظيفية، ويقدّم بطاقات معتمدة في الموالاة ليغدو من أهل الثقة، وينتظر أن يصبح المكان شاغراً، أو ينتظر وصول الاعتماد المالي عبر شبكة معقدة من الموظفين البيروقراطيين، وإلاّ كنّا من الذين يعرقلون مسيرة الحداثة وهم يدّعونها.

هل انتهت أسس الحداثة ؟ لم تنتهِ وإنما طرحنا الأولويات التي لابدّ منها: الحرية والديمقراطية والأخلاق واحترام الوقت والاهتمام الخاص بالمبدعين.. فإذا لم أراعِ أنا ولم تراعِ أنت هذه الأسس فإنني أقول لك مستغرباً : عن أي حداثة نتحدّث أيها الصديق العزيز؟!..

يعيش العرب .. تسقط أمريكا

بالرّغم من إلحاحهم المتواصل على مدى عشرين عاماً، مازلت متمسّكاً برأيي.

أبي في أمريكا .. أمي في أمريكا .. وإخوتي ... وهم يريدون – جميعاً – أن ألحق بهم لأحصل على الجنسية وأقيم هناك، هرباً من التخلّف الذي نعانيه هنا.

عشرون عاماً وأنا أكافح في وطني حتى بنيت لنفسي سمعة أدبية طيّبة .. أنهيت دراساتي العليا وعملت في الجامعة.

صحيح أنني عانيت الكثير في مشواري الطويل، وفُجعت بخيانة كثير من المعارف والأصدقاء.. ولكنني أرفض البراغماتية على الطريقة الأمريكية، حيث تكون العلاقة عقداً مقنّناً يستبعد القيم الأخلاقية ولا يعترف بغوث الملهوف أو حماية المستجير.

خلف كلّ تحيّة في أمريكا تكمن مصلحة، والحفلات الجماعية تُقسّم تكاليفها على كل المشتركين.

أما في البلاد العربية فإن الحب يشيع إلى درجة أن يضحّي الفرد بنفسه من أجل إنقاذ الآخرين من غير حساب للفوائد التي قد يجنيها من وراء شهامته.

أهلي في أمريكا يتقاسمون المصروف، وأنا – هنا – أعيش على حساب أصدقائي، ويعيش جيراني على حسابي ... والكرم – عندنا – لايُحَدّ ولا يُقنّن ولا يحتاج إلى مراسيم تشريعية لتنظيمه .

اليوم وصلتني رسالة من والدي تحمل في طيّاتها مئتي دولار ورسالة تقول :

" عزيزي أحمد .. أرجو من سيادتكم التفضّل بتصديق وكالة المحامي من وزارة الخارجية وإرسالها إلينا في أسرع وقت . ولا تنسَ إرفاق طلبنا بفاتورة الكلفة، بما في ذلك أجور الساعات التي تتكلّفها لإجراء ذلك، حتى ترسل لنا الباقي أو نوافيك بالمزيد. نرجو أن تفكّر بالقدوم إلينا مرة أخرى ولن نتقاضى منك لقاء تأمين العمل سوى راتب شهرين.

المخلص

والدك "

سأعترف لكم ياسادتي أنني – للوهلة الأولى – صُدمتُ بنصّ الرسالة الرسميّ. ولكنني – بعد أيام – بدأت ألفتي معها تزداد. لقد أوقظ تلك الألفة جاري الدهّان الذي يحتلّ الطابق العلوي من المبنى.

طرق الدهّان بابي وبرفقته ثلاثة من أقربائه، بدا يحتمي بهم وهو يقول: هل تملك رخصة بوضع عريشة فوق سطح المرآب الذي تملكه ؟

بوجه باسم قابلته وأنا ألحّ على العصابة المداهِمة كي تقبل ضيافتي، وحين أبوا، قلت لهم: الأمر لايحتاج أي رخصة .. بضعة أعمدة خشبية تحمل صفائح رقيقة لتحمي بيتي من حرارة الشمس ومطر الشتاء وغدر اللصوص . جيراننا هم الذين ألحّوا علي كي أحمي بيتي بها، وحين سألتهم عن رأيك، قالوا: الرجل لطيف وهو مقيم في ألمانيا، ولا ضرر عليه من حماية بيتك.

جيش من البلدية داهم بيتي وحوّله إلى أنقاض ... دخل من بيت جاري.. أنجز مهمّته بمرح ونشاط .. تناول وجبة غداء دسمة .. وغادر باتّجاه بيت آخر .. ولم ينسَ المهندس أن يهمس في أذني وصيّة جاري :

إذا أردت أن تبني السقف من مواد بناء نظامية، سيوافق جارك على الإجراء ولن يعود للشكوى؟!...

أي قانون هذا الذي يُعلِّق على ذمّة جار، وسماحته ؟!

وأي قانون هذا الذي يسمح بتكاتف الجيران لإنشاء مبنى كامل مخالف ، غير عابئين بانهياره ؟!..

هل في أمريكا قوانين مشابهة ؟.. هل تجبر أمريكا الجيران على التراضي والتماسك، ولو ضدّ القوانين؟ ... ذلك لايحدث بالتأكيد، لذلك نقول : يعيش العرب .. تسقط أمريكا .

أبي في أمريكا .. أمي في أمريكا .. وإخوتي ...

وأنا لاأبادل أصدقائي بالعالم .. نحن يد واحدة في وجه الظلم والافتراء عندما لايقع على أحد منّا شيء منهما ...

أما عندما يُحسّ أحدنا بسوء.. تتفكّك الأيدي ويبحث كلٌّ منا عن خلاص لنفسه ...

ابراهيم الذي كان في مأزق نتيجة المشاكل بين أهله وزوجه، وأمواله عالقة عند صطوف الذي عشّمه بأرباح باهظة، مما جعله يقع في حيص بيص، فلا هو يأخذ أرباحاً على ماله.. ولا هو قادر على سحبها ليسترهن بيتاً وينهي مشاكله العائلية ..

صطوف كان يفيه كل يوم مئة ليرة ويجعله يكتب صكاً بالإيفاء، مع أنه لم يكتب له صكاً بإيداع الأموال لديه ...

أخذتُ مكافأة كتابي الذي استغرق عامين من العمل المتواصل ودفعتها لصطوف كي يفي ابراهيم...

ابراهيم حُلّت مشكلته ... وأموالي طارت بفضل قانوننا العربي : " المفلس لايُحبس " ... وابراهيم لم تتحرك فيه الحميّة العربية ليطالب لي بالمبالغ التي أودعتها من أجله ... وجيراني الذين أقنعوني بأهمية العريشة وضرورتها لحماية بيتي، انسحبوا إلى بيوتهم، وراحوا يراقبون من ثقوب نوافذهم جيش البلدية وهو يقتحم منزلي بشراسة .

إنّنا عرب نتكاتف في السرّاء .. أمّا في الضرّاء ، فكلٌّ منّا يبحث عن خلاصه، تماماً على الطريقة الأمريكية ...

ومع ذلك: يعيش العرب ... تسقط أمريكا

أبي في أمريكا ... أمي في أمريكا .. وإخوتي ...

وأنا أبيع منزلاً وأشتري آخر في وطني، وأنتقل في معيشتي من حسن إلى أحسن...

البيت الذي اشتريته مات صاحبه بعد أن قبض كامل ثمنه، ولكنّ الورثة لايعترفون بتوقيع أبيهم، وحتى يفرغوا لي ببقية أسهم البيت يريدون أن أدفع لهم ثمنه مرة أخرى على الرغم من أنني أسكنه منذ عشر سنوات ... والحصة الأكبر مدوّنة باسمي.

بعت البيت .. سكنه المشتري، صديقي الحميم، وحجز بيتي الجديد حتى تتمّ له فراغة كامل البيت القديم ...

بيتي الجديد أيضاً حجزه صاحبه البائع لأنني تأخّرت عليه بالقسط الأخير ...

والقسط الأخير كان يجب أن يأتيني مبلغه من صديقي الآخر الذي (سندتُه) في مشروعه ووعدني وعداً قاطعاً أن يسدّد القسط عني في موعده ... ثم أعلن إفلاسه " والمفلس لايُحبس " ...

يعيش العرب .. تسقط أمريكا

في أمريكا تدفع الدولة الأموال عن النصّابين ثم تحصّل مبالغها بطرائقها الخاصّة ... ونحن أحرار .. الدولة لاتتدخّل بين الشركاء أو في العلاقات التجارية ...

إذا كان لديك شيك أو سند أمانة ... حذار من المطالبة به ..

فإذا لم يتّهمك المدين بتزوير السند الذي كتبه على نفسه ولم يرفع ضدّك دعوى جزائيّة، فلا أقلّ من أن يتقدّم ببيان يؤكّد فيه أن العلاقة بينكما علاقة تجارية .. وتصبح أموالك في (خبر كان) بفضل الحرية التي نتمتع بها في وطننا العربي الكبير ...

تعيش الحرية .. يعيش العرب .. تسقط أمريكا

أبي في أمريكا .. أمي في أمريكا .. وإخوتي

وأنا بين حرّيتي في الموت قهراً أو العيش ذلاً ... هنا، وبين أمريكا التي تراودني، ومن الآن أشعر بأنني غريب عنها وبأنها غريبة عنّي، أسألك، ياأبي ...

أحبك ياأبي .. أحبك ياأمي .. أحبك ياجدّي العاشر ... وأسأل :

لماذا خرجنا من الأندلس ولم نُدفن فيها ؟! ...

أيّ عيش تضمنه عائلتي لي وهي تخلّفني هنا، وتدعوني إلى هناك ... ترميني إلى شفا حفرتين بين علاقات حميمية تخفي اغتيالاً يتأهّب، وعلاقات براغماتية تتطلّب تأهّباً دائماً للاغتيال .. أو للحذر منه ...

يعيش العرب .. تعيش أمريكا

وأسقط أنا ريشةً في مهبّ الريح

بانتظار مولد جديد

بلا حرّية .. ولا ... أمريكا

الكتابة مرآة الكاتب

بعض المناهج النقدية تقترح قراءة النص بعيداً عن كاتبه، كي تتاح للناقد فرصة الحياد الموضوعي الذي لايتوافر إلاّ من خلال إعلان (موت الكاتب). على الرغم من ذلك، لايخفى على أحد أن النص يدلّ على ثقافة كاتبه، كما يدلّ على توجّهاته الفكرية، ويفصح عن سماته النفسية والأخلاقية. النص الذي يُقرأ مغفَلاً من اسم صاحبه يبقى ناقصاً فاقد المصداقية، لأننا عندما نسمع خبراً نبحث عن مصدره كي يكتمل معنى الخبر، وإلاّ فقد محتواه وبقي لقيطاً يفتقر إلى النَّسَب. قد يُشاع أن الرواتب سوف ترتفع بعد الشهر السابع من هذا العام، وما إن نسمع ذلك حتى نسأل: من أخبركم بهذا؟ إذا قيل: هي تنبؤات صحفية تقرأ الأحداث، أو صادرة عن مدير مالي في إحدى الدوائر، أو هو خبر تناقلته وكالات الأنباء نقلاً عن الكونغرس اليوغسلافي... إن كانت هذه هي المصادر، لابد أن يفقد الخبر مصداقيته ويصنّف في ركن الشائعات، أما إذا نُقل الخبر عن مصدر حكومي مسؤول فإن الموظفين سيبتهجون قرابة شهرين قبل أن يلاحظوا ارتفاع الأسعار بحيث تغدو زيادة الراتب إجراءً شكلياً
لامعنى له. وفي الأحوال كلها، يبقى النص مرهوناً بالمصدر، يعبّر عنه ويدلّل على ممارساته، وعلى نوعية ارتكاساته النفسية.

ولهذا نهمس في آذان الذين يهاجمهم الآخرون بطرائق تنمي عن أخلاقيات المهاجم الذي يبتعد عن الرزانة مقدار ابتعاد امرأة العزيز عن الفضيلة، نهمس لهم بأن يطمئنّوا إلى أنّهم في دائرة النقد، ممّا يعني أنهم يقومون بأعمال يتابعها الآخرون. ولأولئك الذين تفرّغوا لإثارة الفتن وتقصّي زلاّت الآخرين والتشكيك بانتماءاتهم، فإننا نرثي لحالهم لأنهم لم يستطيعوا بناء مشاريعهم الخاصة التي يمكن أن يطالها النقد، وإنما تمرّ أعمالهم التشهيرية مرور النار في الهشيم.

أما آن لنا، ونحن على أعتاب ثقافة منفتحة تقبَل الحوار وتتقبّل النقد البنّاء، أن نساهم في تحسين التماثيل الجميلة بدلاً من تحطيمها بحجة أننا نبحث عمّا هو جديد.

الكتابة مرآة الكاتب، يختار الموضوعات التي تعكس صورة تفكيره، ويكتب بأسلوب ينمّ عن مستواه الأخلاقي. السباحة ضد التيار بلا مسوّغ عادل، والتجديف على القيم أو على الآخرين، واتّباع قاعدة (خالف تُعرف) كلّها ركائز واهية لاتصنع مجداً لأحد. الذين كتبوا عُرفوا وأصبحوا مؤطّرين بنوعية كتابتهم. أما الذين تورّطوا ويريدون أن يؤبوا إلى رشدهم، فأهلاً بهم في جمعية احترام الكلمة التي تفضي إلى احترام الذات من غير تبجّح يدّعي حرية الكتابة فيلقي الكلام على عواهنه. الكتابة تعبّر عن صاحبها وتدلّ عليه... إنها مرآته التي تفصح عن الزوايا التي يهتم بها، فتبيّن مصادر ثقافته، بحيث يغدو من الصائب القول: قل لي ماذا تكتب، أقل لك من أنت (ومن ثمارهم تعرفونهم) فلننظر من أي شرفة نريد أن نبين.

الخيبة ليست مباغِتة

لست أدري السبب الذي يجعلنا نحدّق في المرآة ولا نرى مايراه الآخرون فينا ؟

ربما أيقظ تلك الفكرة في رأسي ذلك الشاب الذي فضّلني على نفسه في اجتياز الطريق قائلاً : تفضل (عمّو) ...

حفرت الكلمة أذنيَّ بلطفها : عمّو ... وقفت أمام أوّل واجهة بللورية صادفتني وحدّقت: فعلاً أنا لم أنتبه إلى مافعلته السنون بي.. ودائماً (أرى ماأريد) غير منتبه إلى أهمية أن أعي ما أرى.

إنها خيبة طازجة تمترست في ذهني فصرت أهجس بها .

فبدت مساحة الغشاوة التي نتمتّع بها ونحن نرى الآخرين من خلالنا غير قادرين على رؤيتهم بما هم عليه فعلاً.

مديري كان وما يزال – دائماً – سيّء الإدارة، لأنه لست أنا .

والمسؤول عن الصفحة الثقافية في صحيفة (غواتيمالا) جاهل، لأنه لاينشر جميع مقالاتي التي أرشّها في وجهه كالأرز في الصين.

ورئيس جمعية (الحداثة) تغلّب على ترشيحي بالتزوير والدسّ والرشوة، على الرغم من أنني أولى بإدارتها، لأنني أبرع منه في حساب التوازنات ... لكنه – هو الذي لعب على الحبلين وفاز (!).

باختصار، إنه الزمن الرديء، هو الذي يجعل الناشرين يتهافتون على من يسمّي نفسه باحثاً، وهو مجرّد مؤلِّف يولّف بين أفكار ليست من بنات أفكاره.

إنه الزمن الرديء الذي يجعل الناشرين يزورّون عني رغم أنني كاتب مبدع ..

أدبج جميع مقالاتي من بنات أفكاري... وأكتب القصص البارعة حتى من دون أن تكون عندي شهادات... ماالذي تعطيه الشهادة للمرء سوى رخصة للقيام بمهنة ما ... بل إن أكثر الشهادات حصّلها أصحابها بالغش والدجل ... بل إن معظمها مزوّر ...

إنني ... إنني ... صحيح أنني أولّف التلفاز على قناة جاري لألتقط القنوات البذيئة، ولكنني – في الواقع – أدرس ظاهرة الإعلام المعادي الذي يحاول أن يفسد أخلاقنا ...

صحيح أنني لاأشتري أي سلعة للبيت، ولكن ابن سينا قال مرّة : " لو أنني كُلّفت بشراء بصلة لما أنتجت حرفاً " وهكذا شأن المبدعين دائماً ...

وصحيح أيضاً أنني أعمل يوماً وأتخلّف شهرين .. وأتنقّل من عمل إلى عمل ولا يعجبني شيء... وهذا من حقّي لقد خُلقت للإدارة والأمر والنهي... لالكي يتحكّم بي شاب صغير لمجرد أنه يحمل شهادات ... ولكن – كما قلت – آه من الزمن الرديء.

وزوجتي الجاهلة تلحّ عليّ كي ألتزم صنعة أطعم منها العيال، وأفي من خلالها ديوني... ولكنها – كما قلت – جاهلة ..

غداً عندما أفوز بجائزة نوبل ستعرف قدري ... وسيعرف كلّ من عاملوني بجفاء ماالذي يحرزه صطوف .

وعندما أمر بقربهم سيشيرون إليّ بالبنان: هاهو صطوف شيخ الشباب.. قال.. وفعل.

من قال : إنني صرت أخرّف من طول البطالة وكثرة التعجرف ؟!!

أنتم – أيضاً – جهلة – يامن تزدرون بي .. كل شيء مبرمج ومحسوب حسابه ... إنه شوط طويل قطعته كي أصل إلى المرتبة الأولى في الخيبة ...

أنا من ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا﴾ . صدق الله العظيم.

حكاية الرؤوس الحديدية

لاشك أن البشر، بعد أن غادروا العصر الحجري، دخلوا في طور أشدّ قسوة، تطلّبه انتشار المدن وتوسّع دائرة التجارة. ولأنّهم، في ذلك الحين، اخترعوا العجلة التي استطاعوا، بفضلها، الاستعانة بالثيران في الزراعة، وفي سرعة تنقلاتهم وتصدير بضائعهم، لذلك سمّوا زمنهم بالعصر الحديدي.

ثم تبدّلت الأحوال عبر آلاف السنين، انتقل الإنسان خلالها إلى طور الحضارة الحديثة. فكثرت الاكتشافات والاختراعات حتى أصبحنا ننعم بالكهرباء ونعاني من أجل الحصول على (غسّالة أوتوماتيك) بعد أن عانى عزيز نسين في توفير ثمن (طنجرة ضغط) منذ ثلاثين عاماً من خلال قصّته التي يتساءل فيها (هل يوجد مثل الحضارة) ؟

وإذا كنّا – اليوم – نستطيع الحصول على هاتف – بعد عمر طويل – وخلال عشر سنوات فقط، فإنّ مدناً أخرى لاتستطيع الحصول على هذا الشيء (الرنّان) إلاّ بعد أيام كثيرة جداً قد تتجاوز الاسبوع.

والهاتف – الأداة الحضارية الأكثر فائدة في العالم – كما يسمّيها الأستاذ محمد الراشد، لأنّها توفّر علينا مشاوير كثيرة، وتختصر الزمن، لايرجع إليه سبب تأخّر وصوله، وطريقة التعامل معه، بل يعزو ذلك الأستاذ الراشد إلى الإنسان الذي يستخدم هذا الجهاز الحضاري فيعبّر، بطريقة استخدامه، إمّا عن أخلاق حضارية، أو عن عقلية إنسان متخلّف. ومظاهر التخلّف في التعامل مع الهاتف تتضح من إطالة الحديث الذي لاطائل وراءه، ومحاولة إزعاج الآخرين في أوقات متأخرة من الليل بقصد التسلية أو مدافعة الأرق.

وبالتعريج على (حكاية الفؤوس الحديدية) التي كتبها الدكتور إحسان الشيط في (الجماهير) منذ أيام، يحلو لي – بمرارة – أن أسمّي الإنسان المتخلّف بصاحب الرأس الحديدية التي لاتسمح بنفوذ الفهم إلى صاحبه.

وبالرغم من أننا على أعتاب القرن الحادي والعشرين، مازالت الرؤوس الحديدية تلقى من يحمل تراثها ويروّج لأساليبها من دون كلل أو ملل.

وأقرب مثال على أحفاد العصر الحديدي، بضعة متثاقفين تأبّطوا شهاداتهم التي انتهى مفعولها، لأنهم منحوا أنفسهم شرف التقاعد قبل أن يبدؤوا العمل، واجتمعوا في أمسية ثقافية:

الأوّل نام كل الأمسية، وفي النهاية انبرى للتعليق عليها بخطبة عصماء تدلّ على أنه لم يعِ حرفاً مما قيل، بل لقد حاول قسر الحاضرين على الاستماع إلى محاضرة ثانية.

والثاني جاء بعد أن شارفت المحاضرة على الانتهاء، ثم قام للتعقيب بصوت جَهْوَري لايعوزه مكبّر للصوت كي يصبح مثل زعيق القطار الذي لايحلو لقائده إطلاق أبواقه إلا عندما يدخل المدينة في آخر الليل.

أما الثالث، فقد حضر نصف المحاضرة، وتجاهل كلّ الثناء الذي وجهّه المثقّفون إلى أهميّة المحاضرة واتّزانها وعلميّتها، تجاهل ذلك كلّه، وأخرج من جيبه أوراقاً طولها مترين وصمّم أن يقرأها على الحاضرين، ثم انبرى يبعق في وجه المحاضر متّهماً إيّاه بأنه لم يبدأ بتمهيد ولم يشكر الحاضرين، وبأنه أتى بأمثلة من الطب والفيزياء والهندسة وهي أمور كبيرة لاينبغي له الدخول فيها، ثم ختم كلامه بالقول: لقد قرأت هذا الكلام قبل الآن، وكل ماقلته منقول – حرفياً – عن كولن ولسن، كما أنّك تتحدث عن الأدب الفرنسي وهو ليس من اختصاصك.. هذا موضوع يحتاج إلى أخصائيين لاأن يتناوله كلّ من هبّ ودبّ ... ثم أخرج أوراقاً أخرى ليقرأ حِكَماً وأمثالاً تطال من يتعدّى على اختصاص سواه، أو من يقوم بعمل غير مؤهّل له.

وحين أوقف مدير الأمسية هذا المعقّب (الفطحل) قائلاً له : إن كولن ولسن انكليزي ياعزيزي وليس فرنسياً، كما أن المحاضر رجل متخصّص في الأدب الفرنسي وله باع طويل فيه.

هل تعلمون ماذا جرى بعد ذلك؟ وقف الباعق وقال : ولو... اجلبوا لنا اختصاصيين في المحاضرات.. أنا أخصائي.. قرأت كتاب تعلم الفرنسية في خمسة أيام ثلاث مرّات .. لماذا لاتدعوني كي أحاضر فيها ؟... لماذا لم يوجه أيّ منبر دعوة لي كي أتحفهم بثقافتي ؟...

ألا يكفي كل هذا للبرهان على أن أصحاب الرؤوس الحديدية قد خلّفوا لنا أحفادهم ومضوا غير عابئين بما نعانيه ؟

خطاب الوعظ العقيم

يسخر النّاس . عادةً . من الّذين ينبّهونهم ، بشكل مباشر إلى خطورة بعض التصرّفات . وتأتي النتيجة ردّة فعل تؤدي عكس المطلوب . وهذا يدفع بنا إلى التساؤل : هل يستطيع كلّ الناس ممارسة فعل التثقيف ؟

الثقافة ليس صفة مهنية كالطب والصحافة والتدريس ، وحتّى أعلى الشهادات لا تمنح المرء صفة المثقِّف (بكسر القاف وتشديدها) ما لم يجاهد ليتجاوز دائرة اختصاصه . ونحن نستطيع أن نفهم كلمات: الباحث ، الصحفي ، القاضي ... ولا يستطيع الانتماء إلى أيّ منها إلاّ من تمتّع بمواصفات محدّدة ومتّفق عليها . ولكنّ كلمة (مثقَّف) ما تزال لا تستدعي إلى الذهن صورة محدّدة ، ولهذا يستطيع أيّ منّا ادّعاء حيازتها . ونحن عندما نقول (مثقَّف) فإنّ كلّ السامعين يتصوّرون أنفسهم . أمّا عندما نقول (مواطن) أو (جمهور) ، فإنّ كلّ إنسان يعتقد أنّه ليس معنيّاً بهذه الكلمة ، وكأنّ الحديث يجري عن إنسان أخر سواه . فمن هو الإنسان العامّي ؟ لا أحد يعتقد أنه المقصود .

ولكن هل يمكن أن نقول عن إنسان يحمل فكرة ما بشكل عشوائي ويستهلكها بحثاً عن سواها بأنّه مثقَّف ؟

وهل تُطلَق عليه هذه الصفة كما تُطلَق على إنسان ينشر الفكر بفعاليّة ، ويساهم في إبداعه ، ويحمل ثقافة لا ليستهلكها ، بل ليعيد إنتاجها ثم يتجاوزها بإنتاج إبداعي ؟

لنتّفق . مبدئيّاً . مع كلّ إنسان بأنّه مثقَّف ، وأنّه يحمل وعياً فرديّاً فذّاً ، وليتّفق معنا هو أيضاً بأنّنا نحتاج إلى وعي جمعيّ مرافق.

فمن الذي ينتج هذا الوعي ؟

إنّه المثقِّف (بكسر القاف وتشديدها) أي المثقَّف في لحظة الإرسال . فأنت مثقِّف بوصفك مرسلاً ، في لحظة التصدير . وأنت واحد من الجمهور بوصفك متلقّياً في لحظة الاستقبال.

ولست أدري ما الذي يدفع بنا إلى عالم الوهم لنتصوّر أنفسنا فوق النقد وكأننا معصومون عن الخطأ ، مما يجعلنا غير قادرين على استيعاب آراء الذين ينقدون بعض أقوالنا أو أفعالنا.

بل ، على العكس ، نصرّ جميعنا على إرشاد الآخرين بعد أن ننصّب أنفسنا (مثقِّفين) من غير مسوّغ ، ومن غير أن نعي أنّ المثقِّف هو إنسان يقرأ الواقع بوعي ، وينقده بموضوعيّة ، ثم يعيد تشكيله عبر أسئلة الوجود المقلقة ، ناشداً التقدّم.

ومن هنا تنبثق خطورة دوره ، ويتّضح مدى وعيه ليكون قادراً على التفعيل من غير أن يستخدم لغة اختصاصية تُغرق في استعمال مصطلحات لا يفهمها الجمهور ، ومن غير أن يستخدم لغة الواعظ المتعالية.

ونحن . في حياتنا اليومية . كثيراً ما نستعمل لغة الوعظ التهديدي قائلين : قال المدير كذا .... وعلينا الالتزام بأقواله لأنّ سلطته عليا ومُلزِمة.

ثم نعلق الشعارات المحذّرة : بأمر من البلدية ممنوع رمي النفايات في الشارع ، وممنوع استخدام الزمور ، بأمر شرطة المرور .... وهكذا فإنّنا حين نريد التوعية نُرهب الآخرين ، ونرفق مطالبنا الإصلاحية بتوقيع من مصدر عال ، غير مدركين أنّ لغة الترهيب والتعالي قلّما تفيد.

وإليكم مثلاً واقعياً : منذ أيام زرت قصر العدل في إحدى المدن العربية ، ورأيته كما وجدته في العام الماضي تماماً : الإعلانات عن النظافة في مكانها .. والقمامة في مكانها أيضاً.

ففي منتدى المحامين بقصر العدل ، حيث لا يدخل المكان عادة إلاّ محامون ، كُتبت في الزوايا لافتات تقول : لا ترمِ أعقاب السجائر على الأرض.

واستمرار وجود تلك اللافتات يؤكّد مجموعة ملاحظات:

أوّلاً : محامون ولا يلتزمون بنظافة مقرّهم.

ثانياً : محامون يُخَاطَبون بلهجة آمره (لا ترمِ).

ثالثاً : كُتبت (لا ترمِ) بالياء (لا ترمي) ولم يعترض أحد المحامين عليها.

رابعاً : لم يُبطل المحامون أسباب وجودها لا بالقول ولا بالفعل ، بدليل وجودها حتى الآن . وهذا يعني أن اللافتة لم تغيّر من واقع النظافة شيئاً ، وأنّ الوعظ لا يجدي لمكافحة الرشوة . مثلاً . في مجتمع تنمّي فيه العلاقات الاجتماعية ، الجشعَ اللامحدود.

إن المسألة أكبر من ذلك بكثير ، والشيء اللازم . هنا . هو التوعية المترافقة بإمكانيّة التطبيق ، بعيداً عن الخطاب الوعظي العقيم.

فمتى نحتفل بنزع آخر إشارة مرور من شوارعنا ؟ .. !

البطاقة الذكيــة

بعد عودته من رحلة علمية طويلة حصل خلالها على الدكتوراه في التحكّم بالطاقة الكهربائية، عُيّن في منطقة نائية بوصفه مهندساً مراقباً للطاقة التي تعمل يدويّاً. لكنّه، بالرغم من انصياعه لأوامر رؤسائه الأميّين – الكترونياً –، مايزال متمسّكاً بحماسه الشديد لإدخال تطوير جذري في أصول التحكّم بالطاقة. وفي غمرة حديثه الشائق أبدى اندهاشاً لأننا مانزال نعتمد تأشيرة موظَّفي الكهرباء الذين يأخذون أرقام العدادات إلى قسم الجباية، علماً بأن البطاقة الذكيّة أصبحت معتمدة حتى في القاهرة وماليزيا والأردن، فضلاً عن انتشارها في أوروبا. والبطاقة الذكية تتيح المجال لتوفير الكهرباء فضلاً عن أنها توفّر الموظفين، وتغني أصحاب المباني القديمة عن جعل جدران منازلهم ألواحاً توضّح تأشيرة العداد حين يكونون مسافرين، نظراً إلى أن الساعات القديمة تقبع داخل البيوت.

ولم يكتفِ الدكتور المهندس بذلك بل راح يشرح الطرائق الممكنة لاستخدام البطاقة الذكية في استخدام المياه.

والبطاقة الذكية تتيح للمرء التحكّم باستهلاكه حيث يشتري سلفاً كمية مناسبة له من الماء والكهرباء ويغذّي بها عدّاده الذي ينذره بعد فترة من الاستهلاك بأنه اقترب من تجاوز الحد في الاستهلاك ويتوجّب عليه التقنين أو شراء كمّية إضافية من الكهرباء أو الماء.

ومما يجدر ذكره أن البطاقة الذكية تقنية اختيارية لمن يريد. وبوصفنا جماعة نسينا ماالذي تعنيه حرية الاختيار، يحلو لنا – ونحن نستشرف ظلال الحرية – أن نُغرق في الخيال فنصنع بطاقات ذكية لكل شأن.

فإذا كنتم من الذين لايكتفون بقراءة العناوين، تصوّروا معي لو كان الموظفون يعملون وفق البطاقة الذكية فيعملون على قدّ الراتب المخزون في البطاقة. لاشك أن بعض القطاعات ستكتفي بعمل الأسبوع الأول من الشهر وتنتظر حتى يملأ أجر الشهر التالي البطاقة مرة أخرى. وقد لاتكفي البطاقة المعلمين أكثر من ثلاثة أيام، أما بعض الوظائف الأخرى التي لاتتطلب دواماً، أو التي يكتفي موظفوها بالتواقيع على دفاتر الدوام فقد يحتاجون إلى إنفاق ثلاثة أشهر قبل أن يستطيعوا الاستجابة إلى متطلّبات عدادات البطاقة الذكية.

ولأن البطاقة الذكية اختيارية، لذلك سيسارع هؤلاء إلى رفضها رفضاً قاطعاً باعتبارها ترفاً ينبغي أن تحاربه الدول المتخلفة التي لم تستطع إلى الآن القضاء على مشكلة الرغيف وسوء تصنيعه، ولم تستطع جعله يخلو من شوائب مقزّزة تجعل تناوله كالسير على حافة خطرة تتطلب الحذر الشديد. ولكن مالنا ومشكلة الخبز التي تسوّغ سوءها كل جهة، وترمي بأثقالها على الآخرين، فنضيع بين مورّد المواد الأوليّة والخبّاز، ونبقى في طابور طويل كل يوم من أجل الحصول على هذا الشيء الذي يسمّى رغيفاً.

لنعد الآن إلى مسألة العدادات التي لابد أن يرفضها كل التجار الذين يعملون على الهاتف ويعقدون عشرات الصفقات وهم يزدردون القهوة ويلوكون الكلام على مجتمع متخلّف وهم يستثنون أنفسهم منه، ويحق لهم ذلك فهم أصحاب أموال ولا يليق بهم تركيب عدادات تحاسبهم على عائدات أعمالهم. كما لابد أن يجنّد النصّابون كل طاقاتهم من أجل محاربة هذه البطاقة الذكية التي تكشف المستور. ولكنني أؤكّد لكم، رغم محاولات المفسدين، سينتشر استخدام البطاقات الذكية، وسيتم تركيب عدادات لكل عمل وشأن، شاء من شاء وأبى من أبى.

وأتمنّى على الحكومة أن تعجّل بهذه المسألة وأن تفي بوعودها فتتيح المجال لكل العاطلين عن العمل كي يحصلوا على بطاقات يقيسون بها أعمالهم، وأن تزيد الأجور بما يتناسب والجهود التي يقدّمها كل فرد من خلال محاسبته على الإنجاز وليس على أساس رواتب موحّدة يتقاضاها الذين يعملون والذين لايعملون. عسى أن يوفّر ذلك للعامل النشيط أجراً يكفيه ذلّ السؤال ومحنة القيام بأكثر من عمل، وليكن أجراً يعادل نصف الجهد الذي يبذله على أقلّ تقدير.

وهنا يحلو لي أن أؤكد على استمرار الشرفاء بالعمل حتى آخر الشهر، رغم أن بطاقاتهم – بعد الزيادة – قد تنذر بانتهاء أجورهم في منتصف الشهر، ولكنهم يستمرون بالعمل ليس بسبب كفاية العائدات، ولكن لسبب آخر أبيّنه لكم في لقاء آخر مع إشراقات سيف الدولة.

وإلى ذلك الحين أهمس في آذان المتسلّقين : حذار أيّها الفهلويون.. ستكون عدّادات عائدات العمل بانتظاركم عمّا قريب، ولا يفلح إلاّ العاملون.

بالحب وحده نعمل

ما الذي يدفع بنا – نحن المثقفين – إلى العمل المتواصل ليل نهار؟ هل هي الأرباح التي نجنيها من عائدات العمل؟ وهل هي الفلسفة البراغماتية التي تبتغي النفع من وراء كل حركة نقوم بها؟

ماالذي يجعلني أكتب هذه الزاوية، وما الذي يجعلك تقرؤها؟

ماالذي يجعل مدير تحرير هذه الصحيفة يواظب على عمله ليل نهار بحيث لايجد لنفسه متّسعاً كي يتمتّع بالراحة بعد العمل؟

إنه الحب – وحده – الذي يجعل العسير سهلاً، والشقاء نعيماً.

بالحب نعمل لتحصيل الرضى الذاتي من خلال الحصول على رضى الآخرين... بهم نحيا ونشعر بقيمتنا من خلال المساهمة في دفع الشقاء عنهم أو جعلهم يعيشون حياة أقلّ قساوة مما يظنّون.

إن مبلغاً صغيراً لقاء الإدارة لايغري بالانتقال من التحرير إلى الإشراف على إحدى الصفحات، وهو لايغري بالانتقال من الإشراف على صفحة ثقافية إلى الإشراف على الصحيفة كاملة. وحتى لو كان المبلغ مغرياً، فإن مانحصّله من العائدات لايغرينا، لأننا – وفي غمرة العمل – لن نجد الوقت الكافي للاستمتاع بما نجنيه .

إنما نعمل بالحب، وهذا الحب لاينفي أن نبدي تذمّرنا بين حين وآخر من هذا العمل الشاق، والدليل على ذلك أننا مانزال نقوم به، ونسعى كي نرتقي في سلّم العمل إلى ماهو أفضل، وهذا يعني إلى ماهو أصعب، وإلى مايأخذ وقتاً أطول.

إننا حين نقوم بالعمل من أجل عائداته فقط – كما يفعل اليهود– لانقوم به ونحن مكرهين وحسب، بل نكره حياتنا أيضاً، لأننا نتحوّل إلى آلةٍ لايهمها سوى طباعة النقود أو تفريخها، وهذا يودي بنا إلى دائرة لايمكن أن يحيا في نطاقها الإنسان.

إن سفر التكوين العبري يصوّر العمل على أنه لعنة أصابت الإنسان بعد أن جُرّد من النعمة الإلهية. كما أن آدم سميث وجون لوك يدّعيان أن العمل نشاط كريه نقوم به مضطرين بسبب حاجتنا إلى عائداته.

ولكننا نتساءل : هل يمكن أن يكون العمل لساعات طويلة مسوّغاً من أجل الاستمتاع بالعائدات في أوقات الفراغ القليلة؟ وإذا افترضنا أن دولة ما اكتشفت كنزاً ضخماً وقررت توزيع عائداته على شعبها بحيث تخلّصهم من كل الأعمال التي كانوا يزاولونها، هل يغدو الشعب – حينذاك – راضياً عن نفسه ؟ وهل يبقى يتمتع بوصفه شعباً ؟

ولنقرّب الفكرة أكثر: لاشك أن كلاً منّا، في وقت ما، فكّر لحظة بإمكانية الحصول على ثروة مفاجئة، عن طريق ورقة يانصيب أو الفانوس السحري، أو ليلة القدر، وسواه...

ولكنّني على يقين بأن أحداً لم يفكّر بالتخلّي عن العمل نهائياً، وإنما دارت في رأسه أعمالاً أفضل، تخيّل أن بإمكانه تطوير عمله أو تغييره إلى عمل يحبّ القيام به، ولكنَّ أحداً لايمكن أن يختار الكسل أو الاسترخاء الدائم، لأن في ذلك موتاً لإنسانيته، وتفريطاً بالسعادة التي لايمكن تحصيلها إلاّ عبر تناوب العمل والراحة معاً.

نحن نادراً مانجد أحداً يمتنّ من عمله طوال الوقت، بل كثيراً مانرى صاحب المهنة – أي مهنة – يحرص على ذمّها باستمرار، وعلى تبيين مشكلاتها ومساوئها... ولكنه، مع ذلك، قلّما يكون جادّاً في تغييرها.

إننا نكره أعمالنا لأننا نحبّها، نكرهها لأنها تجرّنا بشكل دائم إلى الاستمرار فيها.. إلى مزيد من الانتاج.. وإلى مزيد من التطوّر والتحسين.

ولكنَّ هذا الكره ناتج عن حبّ عميق لايعانيه إلاّ العشّاق الذين يلهيهم الحب عن الشعور بمشقّة العمل المرهق المتواصل والدؤوب.

وإذا كان الأمر كذلك، فهذا لايعني أن تستغل الحكومات هذا الحب فتمعن في التقتير، لأن الأجور المتوازنة التي ترضي العامل، تؤدّي إلى مزيد من الحب للعمل الذي يكفي حاجاتنا ويوفّر لنا وقتاً للاستمتاع بعطلة نهاية الأسبوع أو بعطلة سنوية يتجدّد فيها النشاط، كما يؤدّي أيضاً إلى حبّ كبير لحكومة تقدّر جهد أبناء وطنها وتقدّم لهم الرعاية الكافية التي تشير إلى أنها تعاملهم كبشر محترمين. وعسى أن يصل نبأ هذا الحب إلى حكومتنا لتعمل به بوصفه مطلباً أساسياً .. آمين .

لحظـــة اقـــلاع

على هامش جوائز ثقافة الطفل العربي

٣/١

الهاتف المباغت جعلني أسافر مرتين وأكتشف رفقائي وأضحك كثيراً.

وهاتف مماثل جعل الشاعر ممدوح السكاف يسافر مرتين فتوجسنا من الثالثة.

غير أن قصة نجلا علي مثل قصة الشاعر صالح هواري، تميت من الضحك.

والأمر كله يتعلق بالطائر والمطارات في الطريق إلى استلام الجوائز.

حين اتصلت بي أمين عام جائزة انجال الشيخ هزاع بن زايدآل نهيان لثقافة الطفل العربي لتخبرني بموعد حفل توزيع الجوائز في (أبو ظبي)، سألتها عما هو مطلوب مني، فقالت:

لاتحتاج سوى إلى جواز سفر ساري المفعول.

بعد يومين توكلت على الله وغادرت حلب مبتهجاً، وفي مطار دمشق الدولي فوجئت بوجود سبعة أدباء آخرين من مختلف المحافظات السورية، ولأن معظمهم من الأسماء البارزة على الساحة الأدبية، رحنا نتساءل من منّا يسافر فائزاً، ومن يسافر بوصفه عضواً في لجنة التحكيم. وهذا التساؤل شكّل ثقلاً لمستوى الجائزة هذا العام، حيث اكتشفنا أننا جميعاً فائزون باستثناء الشاعر ممدوح السكاف الذي كان في لجنة التحكيم وأبدى سروره من المفاجأة بهذا العدد الكبير للذين فازوا من سورية.

وهذه المفاجأة – بحد ذاتها – تعدّ مؤشّراً طيّباً لنزاهة التحكيم وسريّة اللجان.

المهم، بعد أن تبادلنا التحيات وأنهينا معظم إجراءات السفر ووزن الأحمال بشكل جماعي حيث أمّرنا الدكتور وليد مشوح ليقود لحظة الاقلاع، وصلنا إلى كوّة المغادرة، وحين جاء دوري قلّب الضابط جواز سفري غير مرّة، ثم طلب إلي أن أزوّده بتأشيرة الخروج، قلت له:

ليس لدي سوى جواز سفر صالح لأربعة أعوام لاحقة، وقد أديت خدمة العلم والاحتياط ودفعت كل ضرائبي.

قال: إن عمرك أقل من خمسين عاماً وتحتاج إلى تأشيرة لامانع من السفر، وهي ليست لديك، لذا لايمكن أن تغادر سورية.

بعد أن نزل ضغطي وارتفعت كمية الادرنالين في دمي، ونفدت مني وسائل الاقناع، التجأت إلى قائد الرحلة ليأتي ويجد لي حلاً لهذه المسألة.

حدّث الدكتور وليد مشوح الضابط بأننا وفد سوري (سننخطف) إلى أبو ظبي لاستلام الجوائز، وأننا أعضاء في اتحاد الكتاب العرب، ولا بد من وجود وسيلة استثنائية للافراج عن جواز السفر والسماح لهذا المواطن كي يدلف إلى الطرف الآخر من باب المطار. فأبدى الضابط تفهماً للوضع مؤكداً عدم وجود الصلاحية لديه لاتخاذ القرار، لكنه – وبكامل أناقته – غادر كوة مراقبة الجوازات وتبعه الوفد السوري بكامله مترقباً ماسيسفر عنه هذا الوضع. اتصل الضابط برئيسه المباشر، واتضح أنه أحاله إلى جهة

أعلى.. واستمرت اتصالاته من المقدم إلى العميد إلى اللواء، وكلٌ يحيله إلى جهة أعلى... وأخيراً تحدث إلى مدير عام الهجرة والجوازات شارحاً له الوضع بحيادية أرعبتني... لكنه ما إن أغلق السماعة حتى قال: مشي الحال..

فتتابع الوفد السوري واحداً واحداً في شكر الضابط على حسن تصرفه وسرعة تجاوبه للحالة الخاصة. وحين نظرت إلى عبارة السماح بالمغادرة بموافقة الإدارة، كان الشاعر محمد وليد المصري يضع يده على قلبي ليتحسس تسارع النبض، وتدافع الباقون ليحملوا أغراضي حتى أتمكن من تأمل لحظة الاقلاع، وأستوعب سفري الثاني بتأنٍ شفيف.

عندما غادرنا آخر مرحلة ودخلنا الطائرة عبر جناحها، كنت مسروراً بهذه المعاملة الأنيقة التي أعطاها بعداً عميقاً انتظامنا في اتحاد الكتاب العرب.

وفي الوقت نفسه برز تساؤل مشروع لدي: مادمنا في عصر المعلوماتية، لماذا لاتحل مثل هذه المعضلات عن طريق الحاسوب، فنربط مركز كل مؤسسة بأطرافها ونوفر على المواطنين عناء الإجراءات التي كثيراً ماتهوي إلى وديان البيروقراطية، خاصة حين لانجد موظفاً متفهماً مثل هذا الضابط الواعي لمسؤولياته تجاه الإنسان في بلده.

قال الدكتور وليد: هذه إحدى ثمار المرحلة الراهنة والانطلاقة الجديدة، حيث سَهُل ماكان عسيراً لايمكن استيعابه بمثل هذه الروح التي تتعامل مع جوهر القانون لا مع قشوره.

وهنا حُلّت مشكلتي وبدأت قصّتنا الشاعر ممدوح السكاف ونجلا أحمد علي التي تركب الطائرة لأول مرة في حياتها.

– يتبع –

لحظـــة اقـــلاع

على هامش جوائز ثقافة الطفل العربي

٣/٢

للمرأة حساسية خاصة تجاه المرتفعات، وتجاه التعامل النسوي حيث يوجد الرجل. وقد عانت نجلا من كلا الأمرين. ركبت الطائرة للمرة الأولى وهي ترتجف من البرد عصر يوم حار. ولأنها تمارس الكتابة، لم يمنعها الخوف من جموح حب الاستطلاع، فقاتلت حتى تحتل مقعداً بجانب النافذة كي تراقب الغيوم كطفل يلهو بفقاعات الصابون أو يتدحرج فوق الثلج. دائماً كانت تراقب الغيوم وهي ترفع رأسها باتجاه السماء، فأرادت أن ترى المشهد نفسه من فوق لترنو إلى انكسارات غيم تتجاوزه طائرة.

بدا المشهد مدهشاً ومخيفاً في آن، تسبح بين الغيوم كما راودها الحلم ذات تأمّل، وترى إلى هذا السواد الذي يلف السماء نتيجة أفعال البشر وهم غافلون. لم تَطل روعة المشهد إلاّ برهة غابت بعدها عن الوعي، فانشغلنا بها إلى حين، ثم عادت مرة أخرى إلى مرحها المعتاد الذي شابه قلق، مصدره أسلوبي المنطقي في التفكير حيث قلت: بما أنني فزت بالجائزة الثانية مناصفة، فلا بد أن تكون جائزتك الثالثة مناصفة أيضاً، فلا يعقل أن تنال الثالثة جائزة تفوق الثانية، وهكذا تبدد حلم نجلا في شراء غسالة أوتوماتيك لأمها.

وهكذا فتح الوفد سيرة الغسالة التي ستجلبها جائزة السيرة القصصية، وصارت غسالتنا مثل طنجرة البخار التي شغلت عزيز نسين في قصته (لاشيء مثل الحضارة) وكنا نتحدث بحرية رغم تباعد أمكنتنا، لاعتقادنا أن كل ركاب الطائرة غربيون ولا أحد منهم يتقن العربية.

حين وصلنا إلى مطار أبو ظبي في العاشرة ليلاً وجدنا القائمين على الجائزة بانتظارنا، وظلّوا معنا في المطار أكثر من ساعة ونصف بسبب العلامة التي وضعتها زوجة الشاعر ممدوح السكاف على الحقيبة، والتي سنحكي قصتها لاحقاً.

المهم، وصلنا إلى الفندق ووجدنا أحد الفائزين من الأردن الذي رحّب بنا بأسمائنا، فدهشنا من معرفته لنا من صورنا في الصحف والمجلات. لكن ظنوننا بأننا وصلنا إلى شهرة (فيفي عبده) ذهبت أدراج الرياح حين فاجأنا محمود الرجبي بقوله: عرفت أسماءكم خلال الرحلة.

قال له الشاعر صالح هواري: هل رافقتنا من دمشق؟ قال: لا ... لقد رافقتكم من مطار البحرين. صمت برهة ثم ابتسم بخبث قائلاً:

أعرف أسماءكم.. وأعرف قصة الغسالة أيضاً!.. حين ضحكنا عاودت نجلا الكآبة.

في اليوم التالي حضرنا المؤتمر الصحفي الذي ستُعلن فيه النتائج تمهيداً لتوزيع الجوائز في حفل اليوم الذي يليه. لن نتحدث عن المفاجأة التي كانت بانتظارنا حين وجدنا الدكتور علي عقلة عرسان وإلى جانبه حجازي والغيطاني وفضل والنبهان وباقي أعضاء لجنة التحكيم، لأن مايهمنا هنا هو غسالة أم نجلا... أُعلنت النتائج فحظيت نجلا بالغسالة، أقصد بالجائزة الثالثة منفردة بعد أن ظننا أنها ستكتفي

بشراء صورة الغسالة. وهنا جاء دور الجوائز مناصفة فدخل بعض أصحابها في حوار حامي الوطيس، وشاركت به نجلا بثقة بعد أن حظيت بغسالة لأمها. وأعترف أنني كنت أكثر المشاغبين في الكواليس متحدثاً عن حدسي الذي دفعني إلى نشر مقالة (المسابقات بين المناصفة والتنويه) ليس لأنني أنوي شراء غسالة لأمي، ولكن لأن المناصفة تضيع فرحة الفائز لأنها تخلط الأوراق وتتيح المجال لحديث عن اضطراب التنظيم .

لكن المفاجأة كانت بانتظارنا في اليوم التالي حيث ميّزت الجائزة المناصفات عمّا يليهم بطريقة في غاية الذكاء، وهكذا سعد الجميع بجوائزهم وانطلقوا للتعرف على مراكز البحث العلمي والجامعات، حيث لمسنا التطور الذي وصلت إليه أبو ظبي بفضل التعاون والتسامح والقدرة السريعة على اتخاذ القرار الصائب بعيداً عن جو البيروقراطية الخانق. ولفت أنظارنا مجتمع فتي يحرص على الوقت وعلى النظافة وعلى الالتزام بالعلم والعمل. مجتمع استطاع أن (يبلط البحر) كي يوسع رقعة أراضيه ويبدي اهتماماً بالمكتبات التقليدية والحاسوبية سواء بسواء.

مجتمع لاتشوبه سوى ظاهر الهاتف النقال التي تصل إلى حد الإدمان، كما لفت أنظارنا شاب سوري متحمس يعمل على (مشروع الوراق) في القرية الالكترونية، ويهدف المشروع إلى ادخال الفكر العربي والحضارة العربية إلى مكتبة الحاسوب ليشيعها عبر الإنترنت. وكم كان سروري عظيماً بالأستاذ الشاعر نوري الجرّاح حين حدثنا عن مشروعه وطلب إلي تزويده بالأعمال الكاملة للكواكبي. وزادني غبطة في اليوم التالي وجود الكتاب في مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، وأكبرت استجابة معاون مدير المركز حين أبدى استعداده لتصوير الكتاب وتقديمه للجراح حين طلبت إليه ذلك. ومركز البحوث هذا مزود بكل التقنيات الحديثة لجمع المعلومات والبيانات وتبويبها بدءاً من أحوال الطقس في العالم وانتهاءً بآخر الأحداث العالمية، حيث يُصدر –يومياً– نشرة مكثّفة توزّع على أصحاب القرار كي يصدروا قراراتهم عن معرفة بعيداً عن حجب المعلومات التي يمارسها بعض المنتفعين في دول أخرى بحيث لايعلم المسؤولون أو يتغاضون عن معرفة آلام مواطنيهم وآمالهم.

ولا تظنوا بأننا صُلبنا في المطار بعد وصولنا بسبب إجراءات السفر، بل إن هذا الأمر يتعلق باصرار الشاعر ممدوح السكاف على الاطمئنان، قبل أن ينام، على ربطة زوجته، وهي قصة مختلفة نسردها بعد حين.

يتبع ......

لحظـــة اقـــلاع

على هامش جوائز ثقافة الطفل العربي

٣/٣

أن تشعر بالحب، شيء لايُقدّر بثمن، وأن تلقى الغوث في لحظة لهفة من أناس تجمعهم فضيلة التعاون، متعة لايعبّر عنها سوى البكاء، وتجعلك في حنين دائم إلى الاجتماع بهم من جديد.

بين مطارين فُقدت حقيبة الشاعر ممدوح السكاف، وبالرغم من أمان الطائرات، لم يشأ أن يغادر قبل أن يلمح (البكلة) الحمراء التي وضعتها زوجته علامة بارزة يستدل بها على الحقيبة دون عناء. وبالرغم من إرهاقنا وانتصاف الليل، لم نشأ أن نتركه وحيداً ينتظر الحقيبة.

حين حالت تأشيرة الخروج بيني وبين باب الطائرة، وقفوا إلى جانبي وكأنهم مثلي ممنوعون.

حين فقدت نجلا الجماعة نتيجة إهمال لحظي من بعضنا واستهتار من آخرين، شعرت بالضياع وكأنها قارب تتقاذفه الأمواج، ولما التقتنا بكت مما جعلني أشعر بالذنب حتى منتصف اليوم التالي مفتقراً إلى متعة الفوز بالجائزة وبوجودي بين جماعة من الأدباء.

حين بدّلنا الطائرة في مطار البحرين، اكتشفنا أن مكان صاحب الحقيبة (السكاف) صار في طائرة أخرى تتخلّف ساعة عنا، فتوالينا نناقش الرجل النحيل الذي يقف خلف الكومبيوتر، حتى استطاع أخيراً إعادة السكاف إلى طائرتنا، لكنه لم يستطع أن ينقل الحقيبة إليها، وهذا سر انتظارنا في المطار، المطار الذي جعل قلب الشاعر ينخطف.

قال: مرت امرأة تشبه زوجتي في ثيابها وقوامها فظننتها هي حتى (فرفح) قلبي برهة ثم اكتشفت الحقيقة.

في لحظة الانطلاق تلك، المتعة الحقيقية لنا، لم تكن لأننا نستكشف بلداً عربياً آخر وحسب، بل تكمن بعمق في فضيلة جمعنا أسبوعاً لنتعارف أكثر ونستطلع دواخل الأدباء لنعرف بعض أسرار اختلاف أساليبهم في الكتابة وفي الحياة. لذلك كانت لحظة الهبوط مؤلمة وحزينة وباهتة. جئنا إلى بلدنا الذي نحب، لكننا فقدنا التلاحم حيث غادر كلٌ إلى مدينته حاملاً ذكريات أسبوع لايُنسى ... في بلد لايُنسى ... مع أحبّاء لايُنسون.

وهنا نقف لحظة لنتساءل : ماقيمة الجوائز التي تُبرز تفاوتاً اصطناعياً بين المتسابقين حين لاتكون منصفة بما هو واضح للجميع ؟

وما قيمة الجائزة إذا كانت ستعكّر صفو من نالوها بهذا الشعور العارم بالغبن؟

بل ماقيمة الجائزة إذا لم تكن متّكئاً كي تجمع بين الفائزين في منتجع يؤدّي إلى التقارب بينهم، وينسيهم – ولو إلى حين – عبء مشاغل الحياة اليومية التي يكابدها المثقّفون؟!..

ولا أبدي حسداً حين أتساءل عن السبب الذي يجعلنا نكرّم الرياضيين حين يعودون إلينا فائزين، ولا نفكّر لحظة في تكريم الأدباء الفائزين العائدين، من خلال أمسية مشتركة تجمعهم يوماً أو يومين ليدركوا أن متعة الرحلة لم تكن في المكان، وإنما هي في ساكنيه.

المسابقة
بين المناصفة والتنويه

المسابقات ظاهرة حضارية تدلّ على مستوى الوعي الذي تتحلّى به الجهة التي تنظّمها، وتنمّ عن رغبتها في تحفيز المبدعين على بذل مزيد من الجهد لرفع سويّة إبداعاتهم، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تعبّر المسابقة عن احترام للإبداع، الذي لايمكن أن تتطوّر الأمم من دونه.

وبالرغم من إيجابية هذه الظاهرة، وإسهاماتها في تعميق العلاقة بين المبدعين والمؤسسات التي تعلن عن جوائز المسابقات في شتى الميادين؛ نجد منغّصات تداهم تلك العلاقة وتتأتّى إما من المتسابقين، أو من الجهة المنظِّمة. إن المرء عندما يتقدّم إلى مسابقة ما، يتوقّع الفوز بإحدى الجوائز المعلَن عنها، فإذا لم يفز، يبقي أمر تقدّمه المسابقة سرّاً لايُطلع عليه إلاّ الخلصاء من أصدقائه.

وقد يحدث أن يتوقع نيل الجائزة الأولى، فإذا لم تُعطَ له، يكون أمام موقفين: إمّا أن يقبل قرارات اللجنة التحكيمية راضياً، معبّراً عن احترامه لها، أو أن تثور ثائرته ويقع في الغلط. ونقول يقع في الغلط، ليس لأنه لايستحق الجائزة الأولى أو يستحقها، وإنما لأنه، بمجرّد تقدّمه إلى المسابقة، يعني أنه قرر قبول قرار اللجنة مسبقاً مهما تكن النتائج التي تخرج بها، فكيف يعود ويشكّك بها بعد أن ظنّته راضياً سلفاً بكل نتائجها؟ هذا من جهة المبدع، فماذا عن اللجنة المنظِّمة ؟

اللجنة قد تقع في حيص بيص نتيجة مقارنة قرارات أعضاء لجنة التحكيم التي قد تكون متضاربة أو قد تقترح حجب بعض الجوائز، أو قد تمنح درجات متساوية لبعض الأعمال.

وهذا مايجعل بعض المسابقات تخرج عن سياق نص المسابقة المعلَن وتفاجئ المتسابقين بمستجدات لم يوضعوا بصورتها مسبقاً، وكان من حقّهم أن يعلموا بوجودها قبل قبولهم الاشتراك بالمسابقة. ومن ذلك ابتداع حجب بعض الجوائز الأولى أو الثانية أو الثالثة بحجة غياب المستوى المطلوب، علماً بأن الدرجات تمنح، ليس بناءً على تقييم مطلق أو أنموذجي يوازي عملاً إبداعياً معروفاً، وإنما هي درجات توزّع على الأعمال المقدّمة، وتجري الموازنة بينها ولا تُقاس إلى شيء آخر سواها، فما الأسس التي تبيح للجنة المنظمة حجب بعض الجوائز؟

لقد أعلن السيد محافظ حلب، مشكوراً، عن مسابقة شعرية موضوعها القدس والانتفاضة، وبيّن وجود ثلاث جوائز تُمنح للقصائد الثلاث الأولى. ولنفترض أن ثلاث قصائد فقط قُدّمت إلى المسابقة، من قِبَل مبتدئين، فهل هناك مايسوّغ حجب الجوائز؟

والآن لنفترض أن قصيدتين فقط قُدّمتا إلى المسابقة، فهل هناك مسوّغ لحجب الجائزة الأولى؟ في هذه الحالة، الأمر المنطقي أن تُعطى الجائزتين الأولى والثانية للقصيدتين المقدّمتين، وتحجب الثالثة لعدم وجود متسابق، لأن المعيار – كما قلنا – هي القصائد المقدّمة نفسها.

وبدعة أخرى تميّزت بها بعض المسابقات، هي التنويه ببعض الأعمال التي لم يكن لها حظ الفوز، وذلك من دون أن يكون في إعلانها تنبيه إلى أن تنويهاً ببعض الأعمال سوف يتم بعد صدور النتائج، مما يحرج بعض المبدعين.

أما العجب العجاب فهو ابتداع آخر ابتكره بعض القائمين على بعض المسابقات، هو منح بعض الجوائز مناصفة مما يجعل الجهة المنظّمة تقع في تناقض وإحراج.

لنفترض أن الجوائز توزعت على الشكل الآتي: أربعون ألف للأولى، ثلاثون للثانية، عشرون للثالثة.

فإذا قررت اللجنة منح الثانية مناصفة بين متسابقَين، فهذا يعني خمس عشرة ألف لكل منهما، وتبقى الثالثة عشرون، أي أكثر من الثانية مناصفة. وقد تحلّ اللجنة هذه المشكلة بجعل المناصفة تقع على الثالثة لتوزّع عشرة آلاف لكل منهما، لأن مناصفة الأولى يؤدي أيضاً إلى مساواة غير منطقية بين الأولى مناصفة والثالثة منفردة. أليس الأَولى من ذلك كلّه التقيد بالنص وجعل الجوائز موزّعة على ثلاث بدلاً من بدعة المناصفة؟

فإن كانت قرارات اللجنة صدرت بدقة متناهية وحاز اثنان على المرتبة نفسها بعد كل الموازنات الممكنة ، ألا يكون حينذاك – من حقّ المتسابقين أن ينالا الجوائز الأولى أو الثانية لكلٍّ منهما وليس مناصفة بينهما، أم أن التوفير يدخل في حسبان الجهة المنظمة، مما يدعونا إلى اقتراح إلغاء الجوائز ليصبح التوفير كاملاً غير منقوص.

وما دمنا في حيّز تشجيع الإبداع من أجل خير هذه الأمة ، ألا يكون الكرم من أوجب الواجبات في مثل هذه الحالات ؟

ماالذي سوف يحدث

ماالذي يحدث لو أنني خرجت من بيتي لألقي التحية على عامل التنظيفات فيرد تحيتي بوجه بشوش، وفي الطريق أرى المركبات تسير حذرة، وحين تلمحني قادماً من بعيد، تقف كي تمكّنني من العبور دون أن تضطر لصمّ أذنيّ بأبواقها الفاقعة ؟!..

وفي المسجد أرى الناس متطيّبين ليس من بينهم من يصلّي بثياب ملوّثة أو بجوارب مثقوبة تحمل في ثناياها أوساخاً متراكمة على مدى أسبوع ؟!..

ماالذي سوف يحدث لو أن بائع التوت التزم زاوية لاتعيق المارّة، وعلّق على عربته لوحة تبيّن مزايا توته وتوضّح سعره، من غير أن يحمل بوقاً حربياً ويصرخ في أذنيّ غير عابئ بالنائمين ؟!

وفي الحديقة لم أر عشرات المتسوّلين يصطفون لاستقبالي بشتى الأكاذيب، بل أرى عامل الحديقة يرحّب بالقادمين، والناس يتّجهون بثقة وأوجه بشوشة إلى أعمالهم مستفتحين بذكر الله؟ .

ماالذي يحدث لو أن موظف الدائرة الحكومية قابل حاجتي بالقضاء ولم يلمّح ثم يصرّح ثم يستجدي الرشوة مني ومن سواي، بل لو أنّ الموظف الذي تعوّد على تلقّف الرشوة بأشكال مختلفة ومبررات متنوعة، ماالذي يحدث لو أنه امتنع عن قبولها وهو يذكر أن (ماأُخذ حياء فهو حرام)، فكيف بالذي يؤخذ عنوة مما يجعل السائق يخرج إلى عمله لاعناً نفسه على اليوم الذي قرّر فيه أن يصبح سائقاً يتحمّل الزبائن الذين لايتقيدّون بالمواقف الرسمية المخصّصة، ويتحمّل الضرائب المباشرة الفورية المخفّضة التي لابد أن يدفعها كل يوم حتى ولو تقيّد حرفياً بتعليمات المرور.

ماالذي يحدث لو أن شرطي المرور اكتفى براتبه، وبدأت أفهم أنا أن الشارة الخضراء وحدها هي التي تتيح لي فرصة عبور الشارع بأمان ؟ !

ماالذي يحدث لو أن البائع ضبط ميزانه ولم يرتّب خضرواته بطريقة تخفي معايبها ؟

ولو أن التاجر لم يحلف أغلظ الأيمان كاذباً ؟

ولو أن عامل البريد أوصل الرسائل بالطوابع اللازمة من دون زيادة .. أو نقصان؟

ولو أدى كلّ ذي دين دينه لمن ائتمنه أو أحسن إليه، ولم تسوّل له نفسه بالنصب والاحتيال في ظل قوانين معقدة مطّاطة يسهل التلاعب بها أو التحايل عليها بأشكال مختلفة بحيث يمكن أن يصبح صاحب الحق ملوماً لأنه تعامل بثقة ظانّاً أن الآخرين يتحلّون – مثله – بأخلاق رفيعة ومعاشرة طيبة ؟!

ماالذي يحدث لو أنّني – مرّة – نسيت أنّ (لو) تفتح عمل الشيطان.

حاذروا الانصياع

ماالذي يعنيه أن أمنح الخير للآخرين، وأن أعطيهم أفضل إمكاناتي؟ إن هذا لايعني سوى أنني أعطي ذاتي - في الآن نفسه - وبقدرٍ أكبر، ماأرى أنني أستحقه من التقدير. إنني أؤكد قيمتي بما أقوم به من خير. إن الإنسان، أبداً، لايمكن أن يتجاهل ذاته في أيّ عملية من عمليات الفعل، لأنه (هو) الذي يفعل الخير... أو الشر.

وهو - لاسواه - الذي يريد مايريده، مهما تكن الظروف المحيطة به قاسية. ومهما يحاول، أو نحاول أن نضفي دواعي مشيئته على الآخرين، أو نعزو أسباب اختياره إلى المحيط الذي يمثّل سلطة طاغية لاراد لأوامرها، لأنها مهما غالت في عنتها وتعسّفها، فلن نستطيع تبرير عثراته بها.

إن تلك المحاولة في جعل الآخرين يتحمّلون أوزار أخطائنا، محاولة فاشلة، وكأننا - بذلك - ننفي حريتنا التي هي بمنزلة المحور الحقيقي لحياتنا الداخلية التي تشكّل إحدى نقاط الارتكاز الأساسية في الفعل المتبادل بين الداخل والخارج في التعامل مع الكون. إن الإنسان إذا ارتضى لنفسه أن يعيش أداةً في يد الغير.. بحجّة أنه فرد ضعيف أمام قوى الطبيعة، وفي مواجهة ضغوط الجموع، فهو - حينذاك - يخدع نفسه بوهم القوى الخارجية، ويستسلم لسهولة الانقياد.

صحيح أنه بذلك يقوم بفعل، ولكنه بفعل سلبي، فعل منفعل، لافعل فاعل، فعل لايختلف في جوهره عن ردة الفعل المنعكسة عند الحيوان، وإن اختلفت بالدرجة. ولكن إنسانية الإنسان تقتضي منه أن يعدّ نفسه القوّة الحقيقية الوحيدة التي تفصل في مصيرها بنفسها، وتفعل ماتريده حقاً، وما تراه صواباً، وتكفّ عمّا لايناسب إرادتها، باعتبارها إرادة حرة.

فعلى الإنسان أن يدرك حقيقة هامّة، وهي أنه هو سيد الموقف في مايخص حياته، وتبعاً لإمكاناته: العقلية والنفسية والجسدية، فهو - وحده - الذي يختار ذاته أو يختار تشييئها بالسماح للآخرين بأن يعدّوها موضوعاً توسليّاً لما يرغبونه هم. لأنّ الإنسان، في المرحلة النهائية ومهما تكن الضغوط قاسية، ونحن لاننكر العوامل الخارجية المتنوعة التي تتدخل في حياته، يستطيع أن يرفض أو أن يقبل. أن يفعل أو أن ينفعل... يقود نفسه أو يقوده الآخرون. إنه يستطيع أن يكون الحكم الفصل في تقرير مصيره، ولو في تفكيره، الذي يحدد بواسطته موقفه تجاه الآخرين والأشياء من حوله، على الأقل. ولكن لماذا يفشل الإنسان في أن يكون حراً ؟

لأنه لايريد أن يكون مسؤولاً، فهو يعتقد أنه إذا مانفى عن نفسه الحرية، ورمى بثيابه القذرة في حمّامات الآخرين، فإنّه يتملّص من مسؤولية تحمّل أعباء واجباته، حتى تجاه نفسه.

إنه يتهرّب من (موضعة) نفسه كشيء خارجي عنه، ليحاكمها بشيء من التجرّد عن الذاتية المغرقة في الاندماج مع الآخرين، وليستكنه أغوار ذاته ويتصرّف على أساس هذه المعرفة للذات - الموضوع، قدر إمكاناته. فالإنسان - الإنسان هو ذلك الذي يواجه نفسه أوّلاً، بكل صدق، بمكامن الأسوار التي

يعرضها والتي سيتعرّف بها فيها، بكل عقدها وطاقاتها وثغراتها، ثم يبادر بعد ذلك إلى الوقوف في وجه كل تيار متناف مع صدقه الأخلاقي، حتى وإن جُرّد من كل نياشينه التي حصل عليها بالنفاق.. حتى ولو حرم من كل الحقوق الشخصية التي تمنحها السلطة عادةً – أيّ سلطة – لمن تعدّهم مواطنين شرفاء. بل لو تبيّن له أنّه، بمواجهته الصادقة تلك، قد يفقد حياته.

وليس عليه – عندئذٍ – أن يتصوّر أن الآخرين هم الذين قضوا على حياته، بل عليه أن يعي أنه هو الذي اختار الموت. إنه حتى بموته على هذه الصورة – وإن كان قد قضى على كلّ اختيار كان من الممكن – أن يختاره فيما لو بقي حياً – أقول حتى لو كان ذلك كذلك، فإنه يكون – باختياره هذا – قد اختار اختياراً حقيقياً، هو بمنزلة اختيار الحرية المختصِر لكل الاختيارات التي كانت ستُتاح له فيما لو بقي حياً.

فاختاروا حياتكم أو موتكم، وتجنّبوا الانصياع.

العلم والكرامة .. هل يجتمعان ؟

كنت شديد الاعتزاز بلهاثي في طلب العلم لأن الفرق بين الجاهل والعالم جليّ، والعالِم ينال التقدير والثناء لعلمه ، فضلاً عن أن الأديان ، والفلسفات الممتدة عبر التاريخ كلها تدعو إلى طلب العلم وتحثّ عليه.

كانت أمي تنهرني وتنهاني عن سهر الليالي بين الكتب التي لاتُطعم خبزاً، ولكنني أعلم أنها – في قرارة نفسها – تحترم ماأقوم به . لذلك، عندما تيأس من ثنيي عن طول السهر، كانت ترفع يديها بالدعاء لي: (الله يعلّي جاهك – ويعمر بيتك) ...

ومن بعد، فقد كانت زوجتي – المثقّفة ، تدعوني إلى الموازنة بين طلب العلم وطلب المال معاً. وكانت، كلما تعرّضتُ لحالة نصب أو اضطهاد، تواجهني بالقول :

أرأيت ... لا أحد يقدّر العلم ... الناس تميل مع صاحب المال ..

لكنني – بعناد أجوف – أواجه حجّتها بأن من الناس من يحترمون العالِم ويقدّرون جهده في سبيل رفع شأن الإنسان في وطنه، كما أن الله يحب العلماء ويقرّبهم يوم القيامة ... وكنت أمطرها بآيات وأحاديث كثيرة تؤيّد زعمي وتؤكّد صحّة مواقفي.

جاري التاجر ... الذي يعمل في بلد أجنبي ويجني الأموال كي يهرقها في البرهان على أن المال هو القوة التي ترفع الإنسان أو تحط من شأنه ... وكي يبرهن على صحّة أقواله ... لم يحاول محاورتي لإقناعي بوجهة نظره ، وذلك لأنه يعتقد أنّ المثقفين وأصحاب الشهادات لايتقنون إلاّ الكلام، وهم غير قادرين على الفعل ... هم يتكلّمون ويكتبون، والتجّار وحدهم هم الذين يقومون بالأفعال ...

لذلك لم يشأ أن يهدر وقته معي ، بل اكتفى بأن قذف في وجه أحد أقربائه حفنة من المال وقال له: تصرّف .. أريد نتيجة سريعة .

وبالفعل، بعد أيام جاءني إنذار بضرورة إزالة مظلة الأنترنيت التي تقيني من حر الصيف وأمطار الشتاء وتدرأ عني عيون المتلصّصين. والإنذار يقول : إمّا أن أزيل العريشة خلال خمسة أيام أو تقوم البلدية بالهدم نيابة عنّي وتغرّمني بالتكاليف .

قالت زوجتي : دبّر الأمر قبل أن يهدّوا البيت فوق رؤوسنا.

ذهبت إلى البلدية وقابلت بعض المسؤولين فطمأنوني بأنّ قضيتي (غير محرزة) فهي مجرد ألواح أنترنيت فوق مرآب .. فمن سيهتم بها، خاصة وأن حلب تغصّ بمخالفات جسيمة وأسطح مرائب بيتونية مسلّحة ... بل إن طوابق ... بل مناطق كاملة منشأة بشكل مخالف... وبعضها خاضع للتسوية... أما حالتي فهي لاتستأهل حتى التسوية .

عدت إلى زوجتي مبتسماً : ليس هناك قانون يسمح أو يمنع هذه الألواح من سَترنا ... وجارنا بعد أيام سيسافر إلى البلد الأجنبي حيث يعمل وقد لايعود حتى العام القادم أو الذي بعده ... وحتى حين يعود... يأتي زائراً للأهل بضعة أيام ثم يسافر ثانية ...

ولا شك أنه يمزح ... فلا ضرر عليه من سقف الشرفة .

قالت زوجتي وهي تبتسم : سننتظر لنرى .. والله .. الثقافة تركتك لاتتقن إلاّ الكلام ...

قلت لها : اطمئني ... البلدية قالت الأمر لايستأهل .. كما أنني أخدم البلد منذ سنوات طويلة .. وما زلت أقوم على خدمتها ... ولا يمكن أن يوافق أحد على أذيّتي فيما لايضرّ الآخرين .

بعد أسابيع ، في العاشرة والنصف صباحاً، عدت إلى البيت لآخذ بعض الكتب والأوراق، ففوجئت بأربعة أشخاص يعتلون سقف المرآب فوق بيتي ويعملون معاولهم فيه وكأنهم يُسقطون عَلَماً إسرائيلياً لتحرير المنطقة من العدوان .

سألت زوجتي التي تضم أطفالي الخائفين : ماالذي يحدث ؟

قالت : جاءت البلدية والشرطة ومعهم أمر بهدم العريشة، ولأنني خفت ولم أفتح لهم الباب ... دخلوا من شباك جارنا التاجر وبدؤوا بهدم السقف فوق رؤوسنا وكأنّنا مجرمون ... تابعت زوجتي كلامها باستياء شديد وهي ترمقني بنظرة مشفقة : قلت لك .. ماتقوله " كلام في كلام " ... خِدمتُك لحلب لاتنفع ... وما قاله لك الموظفون في البلدية غير صحيح ... فلا أنت محترم ولا أحد يأبه لك .

حين صعدت إلى الشرفة لأرى مايحدث بدا لي جارنا وهو يناول القائمين على الهدم واجب الضيافة .. مطَّ رأسه من الشباك قائلاً : أهلين جار ... نحن أهل الفعل وأنتم أهل الكلام .. كما قلت .. لاتحاد الكتاب ينفعك ولا اتحاد الصحفيين .. ولا علمك .. الذي يفعل هنا هو هذا (مشيراً إلى جيبه)...

وأنا مذهول من هدم بيتي أمام عينيّ تذكّرت دعاء أمي : (الله يعلّي جاهك .. ويعمر بيتك) ...

آه ... بئس مايفعله المثقّف ... يدافع عن الذين يعملون على تحطيمه ...

كيف يمكنني بعد ذلك أن أتحدّث عن الأخلاق .. وعن سيادة القانون ... وما الذي بقي لي بعد أن أهانني مكتنز في عقر داري غير آبه بأي قانون ... بل لقد وصّف الحالة واقتطع مادة قانونية جامدة ... أخرجها من روح القانون ودفع بها في وجهي – بمساعدة أمثاله – كي يدفعني إلى القناعة بأن المُثل والأخلاق وروح القانون وأهدافه ... والعلم الذي نسعى إليه ... كل ذلك كلام ولا جدوى منه، لايمنح الكرامة للإنسان سوى المال .

ولكنني – رغم المذلّة التي وُضعت فيها ... ورغم اضطراب ضغطي وسط أنقاض شرفتي . مازلت مقتنعاً أن العلم والكرامة صنوان لايفترقان ...

وأن الصحفيين والكتّاب وقضاة العدل وحماة كرامة المواطن وحريته في بلده وفي بيته، هم الملاذ الذي نلجأ إليه وقت الحاجة كي يردّ الظلم عن المظلوم وينزع ابتسامة الشماتة من أعداء الإنسانية ...

ونحن نعلم أن الصحافة في بلادها هي السلطة الرابعة التي مُنحت حرّية الدفاع عن حقوق الإنسان وممتلكاته .

أليس كذلك ؟!..

امنحوني فرصة للكلام

إنّ التغيّر الذي يحدث في العالم لايعنيني إلاّ بقدر مايعنيه لي، وهو لايعني لي الشيء الكثير. وإنّما الذي يؤرّقني هو تكاثف الأحداث الخارجية المتقلّبة مع باقي السلطات التي تعصرني لأتحوّل إلى شيء قابل للتكوين بالشكل الذي يريدني عليه أصحابها. والسلطات التي تؤطّرني هي أربع رئيسة: تبدأ من الاستلاب الذي يتوسّل الايديولوجية أو الدين أو المعرفة أو التربية ليحاصرني فكرياً، ويرسم لي مايجب عليَّ أن أعرفه، وما ينبغي لي جهله؛ ويصدر عن فرد أو مجموعة تتمثّل في هيئة تمتلك زمام الفكر، وتوزّع منه ماتشاء، على من تشاء، بقدر ماتشاء. وهي – الآن – نسق فئوي ينسف رؤاي القومية، ويحرص على الوحدة الوطنية التي يرأسها، مستبيحاً كلّ الوسائل المؤديّة لتحقيق غاياته، بما في ذلك تحويلي إلى أداة للتبشير بسداد رأيه، وصحة رؤيته الناضجة، وصواب مواقفه الاستراتيجية المبدئية، وروعة رؤاه الاستشرافية التي مافتئت تتقلّب من مظلّة إلى مظلّة، حتّى لم أعد قادراً على الوقوف تحت الشمس المحرقة، أو العواصف الصحرائية العاتية، أو المطر الغاضب؛ من دون حماية. ولم تعد لي ثوابت، منطلَقاً ومنهجاً وغاية. وأنّى لي ذلك وهو يتحكّم بعقول الناس، عن طريق وسائل الإعلام، وسلطة البحث والتربية والتعليم، ومالكي زمام الإرشاد الديني؛ متبنّياً مذهباً متقلّباً هو ضد تفكير مواطنيه، ومدّعياً امتلاك ثقافة واسعة.

ولكنّ الواضح هو **أن النظم في دول العالم الثالث هي بدون ثقافة،** لأنّ الثقافة تقتضي من المثقف أن يجعل للثقافة سلطة في الدولة التي ينتمي إليها. **فعندما تكون للثقافة سلطة، يكون للنظام ثقافة.** وعندما تُهان الثقافة ويفقد المثقّف حريّته؛ ندرك أن النظام الذي يهينها، بسلبها الحرية والفاعلية والقرار، فإنما يفعل ذلك، لأنّه يفتقر إليها ضمن هيكله التنظيمي، ولا يملك إلاّ قشورها.

والسلطة الثانية هي **سلطة استغلاليّة** تعمل على تجويعي لأستلهم عظَمَتها من حاجتي إلى عظْمَتها، متوسّلة حاجتي المالية وثراءها أداة لتطويعي، حيث يمكن لمجموعة ما أن تستغل المجتمع عن طريق الاستئثار بالثروة، وتشتري الفقراء اللاهثين خلف قوت يومهم. وهي – الآن – نسق فئوي يوزّع ثروة الأمّة على ممتلكي نياصيه، ويرمي الفتات لمؤيّديه عى حساب مواطنيه المتعَبين.

أمّا السلطة الثالثة فهي **الاستعمار** الذي نسمّيه اليوم **النظام العالمي الجديد،** محاولين التأقلم وإيّاه بدعوى ضرورة أخذ المتغيرات الدولية بعين الاعتبار.

ولكن، من الذي أجبرني على الاستظلال بالمجلس السوفييتي الأعلى أو بالبيت الأبيض، ومن الذي يدفعني – الآن – لإعادة الاستظلال والبحث عن مظلّة جديدة، ناسياً أنّ التخلّف في جوهره اعتماد على الآخرين؟ ومن يخبرني بأهميّة التمسّك بأمل السلام بعد أن جعلني أعاني من ألم الاستسلام المحارِب ؟

من صوّر الاحتلال انتصاراً، والهزائم خططاً، والتقلّب سياسة، والآن يسمّي الفجيعة تأقلماً مع الوضع الجديد؟ إنّه النسق الفئوي عينه، يتمسّك بكل مايملكه من معرفة وثروة وقوّة، بما يرى أنّه في صالحه.

والسلطة الرابعة هي صاحبة القوّة والسلعة والعمل والقانون، تملك الفكر والمال والقوّة، تفرض الطاعة وتحدّد الزاوية الوحيدة التي يمكنني النظر من خلالها، وتحوّلني إلى رقم حسابي وحسب. تمنحني العمل أو تمنعه عنّي بقدر ماأعبّر عن حسن النيّة في التبشير بها، تمارس سياسة الكرم معي أو إمساك الطعام عنّي لتحافظ على هيمنتها في داخلي. وتقول لي من عليّ أن أحب، ومن عليّ أن أكره، تعلّمني من هم اعدائي ومن هم أصدقائي، وقد تقلب العدو صديقاً، والصديق عدوّاً، وفي الأحوال كلها عليّ الانصياع إلي ماتراه هي صواباً من دون أن أُتعب نفسي في التفكير، فهي ترى عنّي وتسمع عنّي وتفكّر عنّي وتتحمّل جهد الوعي حفاظاً على راحة عقلي.

توجّهني يميناً أو يساراً ، باتجاه الشمال أو الجنوب أو الغرب، بحسب الجهة التي تدعمها لتبقيها. وتستخدم لغة زئبقية حين تخاطبني لتخفي خيانتها لذاتها وللآخرين.

فمن أحارب إذاً ؟

أنا مع من أو ضد من ؟

من معي ومن ضدّي ؟

وهل عليّ أن أغيّر اعتقاداتي الثابتة بالعروبة والإسلام وحريّة الإنسان في كل زمان ومكان، فكريّا وسياسيّاً واقتصادياً؛ من أجل الضرورة الطارئة للمرحلة الراهنة ؟

هل أضيّع الثابت من أجل المتحوّل، فأحافظ على لقمتي وتجوالي في سجن كبير يحدد أطر إدراكي؟

ما المثقف وما السلطة وما المتغيرات الطارئة؟

وهل يمكنني القبول بتجسير الفجوة بين المثقف والأمير، حين تبدأ العملية بمبادرة من الأمير وتجري بقبوله ورضاه، وحين يجسّرها بحدودٍ من صنعه؟

متى أمكن التصالح بين المفكّر والسياسي من دون أن ينطوي المفكر تحت جناح السياسي بشكل مشين؟

متى كان من الممكن أن تأمن ليلى الذئب من غير أن تستسلم لأحلامها الرومانسية، أو تحمل سلاحاً يخافه؟

لِمَ عليَّ أن أرضي الأمير، ولا يحاول هو أن ينال رضائي؟

إنّ الفجوة / الهوّة / الوادي لاتتجسّر إلاّ عندما تصبح لدى المثقف القدرة على إزاحة الأمير الذي يتلاعب بمصائر الناس متمسّكاً بجهله المعانِد.

وهل يمكن للسلطة أن تهادن مالم تجد أمامها سلطة أقوى؟

ومتى عُقد سلم بين طرفين لم يكونا على القدر نفسه من القوّة، ولم يكن ذلك إذعاناً تفوح منه رائحة الرضوخ؟

أعرف أن إضراب جامعي القمامة لأسبوع واحد كفيل بوضع المدينة على كفّ عفريت. ولديّ قناعة بأن **احتجاج المثقفين لأسبوع واحد كفيل بفرض آرائهم على أيّ سلطة** كائنة من كانت. ولكن هل يتّفق المثقفون على الإصرار لإجبار الأمير على عقد اتّفاق لتجسير الهوّة بينهما وهما على قدر واحد من القوّة الفاعلة؟

وهل يمكن للمثقف، الذي يدين استبداد السلطة، أن يدين تنكّره للتسامح الفكري وحرية الرأي، بحيث لو أنه احتلّ موقعاً في جدار السلطة يمتنع عن ممارسة القمع، الذي يمارسه الكثيرون بحجّة الحرص على الوحدة الوطنية في مواجهة التهديدات الخارجية، وهم في الواقع لايريدون سوى الحرص على مصالحهم، وعلى فرض آرائهم التي لايرون سواها صواباً؟ وهل تبقى الديمقراطية لديه تعني الشيء نفسه عندما كان خارج السلطة، أم أنها تلبس ثياباً جديدة تبعاً للموقع الذي يقف المثقف عليه؟ فإذا استطاع المثقف استعمال أساليب ديمقراطية لتحقيق الديمقراطية وهو في موقع سلطوي، وإذا تطابق وعيه مع ممارسته؛ حينذاك فقط يمكنني أن أقوّم السلطة بصدق من غير أن أخاف على رأسي من سيف السلطان.

وإلاّ فإنّ القطيعة مستمرّة، **ولن أسمح للسلطة بتدجيني** لأتحوّل إلى واعظ السلطان، أو لألعب دور الوسيط بين السلطة والجماهير التي تثق بي؛ **ولن أتاجر، ولن أستقيل، ولن أتنازل عن سلطة الثقافة لأتحوّل إلى مثقف السلطة،** ولن أبدّل السيف بالقلم. فلتملك السلطة السلاح والمال، ولأكتفي بامتلاك الرأي وشجاعة التحدي. **ولئن ملكت هي إطلاق النار، فإنني أملك تلقّي الرصاص واقفاً.**

أمّا إذا جلست إلى طاولة حوار متساوي الأطراف، فإنني سأفتح قلبي بحبّ وتفهّم ولست أدري **لماذا تخاف السلطة من المثقف وهو لايملك إلاّ الكلمة..** فهو لايحاربها.. بل يريد وطناً جميلاً بعيداً عن الاحتلال والاستغلال والاستلاب والاستبداد.. خالياً من العنف.. خالياً من بندقية توجّه إلى قلم لايخون.

بيان غير سياسي

أقدّم اعتذاري إليَّ، لأنّني عبر أربعين سنة كبحت جميع شهواتي، وعنّفت نفسي كي أحافظ على تاريخ نظيف لاتشوبه شائبة...

تحمّلت الآلام النفسية والجسدية وأنا أعاني شظف العيش، متوهّماً أن طلب العلم أشرف من طلب المال، وأن التضحية في سبيل العلم تلقى صدىً جيداً لدى الآخرين، فيُكبرون صاحبها ويصدّون عنه الأذى والمهانة، فكل الأمم تكرّم علماءها وتحافظ عليهم وتمنع عنهم الأذى.

أذكر أنني عندما قدّمت أعمالي إلى الأستاذ نزار في جمعية الحداثة ليساعدني في تجليدها، قال لي، وكان عائداً – توّاً – من ألمانيا بعد إقامة طويلة، قال :

إنّ كتاباً واحداً من هذه الأعمال كفيل بمنحك (فيللا) في أوروبا، تقدّمها البلدية عادةً للكتّاب مع راتب جيد كي يتفرّغوا للعمل الكتابي ...

أقدّم اعتذاري للأستاذ نزار لأنني خجلت أن أقول له بأن البلدية في مدينتي لم تتورّع عن إرسال كتيبة من الموظّفين كي يزيلوا عريشة أقمتها في مساحة مكشوفة من داري.

جاء الموظف ... دوّن المعلومات التي يريد ... بلّغني موظّف آخر لصقاً، أما الثالث فقد أثبت لي أنني لاأساوي في بلدي فردة حذاء قديمة ... الكتّاب، عندنا أيضاً، يُعاملون معاملة متميّزة .

أقدّم اعتذاري لأبي الذي كان يعتزّ بابنه صاحب الشهادات التي تملأ جدران البيت... كان يحمل الصحف والمجلات ليدور بها على أصدقائه ويريهم صورتي واسمي:

– هذا ابني الكبير... الدكتور المتعلّم ... قلت له مراراً اكتب فلان ابن فلان .. ولكنّ اسمه طويل.

كان هو وأمي يتّصلان بالأقرباء حين تظهر صورتي في إحدى الندوات أو المحاضرات ليقولا لهم: تابعوا الشاشة على القنال الفضائية (كذا) .. لتروا (محمّد) .

بعد أن جاءا وشاهدا بيتي (على الحديدة)، تشاغلتْ أمّي بالتسبيح، ولكنَّ أبي لم يستطع كتمان خيبة أمله، نظر إليّ بشفقة عارمة وقال : – ابني .. فتّش عن عمل يدرّ عليك الأرباح .

أقدّم اعتذاري لزوجي التي كانت تفخر بي بين أهلها : (لقد تزوّجتُ رجلاً مثقّفاً ... ألم تروا ابن خالتي عندما زار لندن وجد معلومات عنه على الإنترنت ... المال يأتي ويذهب... أما الأدب والعلم والثقافة فهي الأشياء النافعة في الدنيا والآخرة ...

الآن ... عندما رأتني صاغراً أمام موظّفي المصرف العقاري وهم يبيعون منزلي بالمزاد العلني بفظاظة ... بدأت تنظر إليّ بازدراء : – كنّا نتوهّم أنك رجل مهم، وأنك تحظى باحترام المسؤولين في البلد ...

هي تحمل شهادة جامعية أيضاً ... وتعاملني بأدب جمّ... لكنّها، عندما طلبت إليها أن تحضّر الشاي لموظفي المصرف، أجابتني بغيظ :

– حضّر لهم الشاي بنفسك ... يخربون بيتنا وتستضيفهم ؟ ..

أقدّم اعتذاري إلى مدينتي التي أحببتها بشغف، ودعوت الآخرين كي يحافظوا عليها، ثم رأيت التجّار يدوسونها بمتاريسهم وهي صاغرة راضخة بفضل موظّفين تعمي الأموال بصائرهم فيغضّون الطرف عن كل أذى يلحق بها ولا أتمكّن من الدفاع عنها أو عن نفسي أمام مفتاح كان سارياً منذ قرن مما جعل الكواكبي يصف الوضع آنذاك : " ارشِ تمشِ " ...

أقدّم اعتذاري لكل المساكين الذين غششتهم من خلال دعواتي المتكررة للحفاظ على الصدق والأمانة والاستقامة ...

لم أكن أعرف أن الأمر سهل هكذا ... تملك المال بأي طريقة ممكنة ... ثم تعيد كتابة تاريخك من جديد ... أي كاتب صغير يجعل منك بطلاً مقابل حفنة من الدولارات ... تشتري الجاه والكرامة والاحترام ...

تُصنع لك التماثيل للتبرّك بك ... تحصل على التفسيرات المناسبة لك من أي قانون تختار وبالشكل الذي يناسب هواك ..

تحصل على كل الاستثناءات مادمت قادراً على دفع ثمنها ...

تُفتح لك الأبواب الموصدة ... وإذا شئت تسدّ على أعدائك منافذ الهواء ...

وإذا أردت التفكّه .. تجبر شرطي المرور على تحرير مخالفة لك ... ثم تدفع له ثمن ابتلاع الورقة التي دوّنها ...

يمكنك أن تبني مسجداً باسمك ... تحصل على الرخصة .. تأخذ أضعاف المواد اللازمة للبناء بأسعار زهيدة ... تُقدَّم لك المنح والهدايا والهبات ... تبني الجامع وتجني الأرباح ... تعمّر من فائض مال الجامع ثلاث عمارات ضخمة ... تبيعها بأغلى الأسعار ... ويتبرّك الناس بك ... إنّك رجل تقي...

وشجرة الانتساب التي ترغب بها جاهزة ... إلى أي خليفة تريد أن يمتدّ نسبك ؟ ليس هناك أيّ مانع أو اعتراض، مادمت قادراً على دفع ثمن التسلسل العائلي الذي تريد ...

هل لك رغبة في منصب ما ... اشترِ الأصوات التي تريد... أو إذا شئت اشترِ صناديق اقتراع مملوءة بالاستمارات الموالية ...

أقدّم اعتذاري لكم أيها السادة المحترمون الذين غرّرت بهم ... وأرجو أن تصدّقوني، هذه المرّة فقط، بأنني لم أكن أبيّت لكم أيّ تضليل ...

ولكنّني – كنت مثلكم – أظنّ أن قيم الخير مازالت موجودة، وأن الجمال لاتستطيع قذارة العالم أن تمحوه .

هل – حقّاً – العالم قذر، أم أنّ الطاعون تفشّى في مدينتنا وحدها .

أصدقائي المساكين ... أقدم اعتذاري لكم ولأولادي الذين علّمتهم أن يتمسّكوا بقوّة المحبة ثم خلّفتهم في غابة لايفلح فيها سوى الافتراس.

أحبّائي .. (القدامى) ..

كونوا أنانيين. وتحلّوا بالقوة وتسلّحوا بالمال ...

تطهّروا من وداعاتكم بالخمر والجنس، وابدأوا من جديد .. لاتثقوا بأحد ، وكونوا ذئاباً يكن الناس لكم حملاناً .

أقدّم اعتذاري لكم أيها السادة، لأنني لم أكتشف – قبل الآن – أن المثقّف تحوّل إلى مرتزق يحمل بوقاً عليه علامات صاحب الانتاج ...

المواطن مات ولم يعد حيّاً سوى راع ورعيّة ...

كونوا رعاةً لايتورّعون عن التخلّص من رعاياهم الذين يخالفون سيرة القطيع ...

مرحباً أيها الرعاة ... مرحباً لم تعد مجدية مالم تكن خلفها غاية تجلب المال .

إذا حُييتم فتساءلوا عن السبب .. ولا تردّوا التحيّة إلاّ إذا كانت تحمل تحت إبطيها مصلحة واضحة .

أيها الرعاة – المستقبليون، لم يعد مجدياً أن أقدّم اعتذاري، لأنه بلا ثمن، وإنّما أكتب الآن كي أنفض عن عينيّ بعض الغشاوة وأعدّ الكلمات كي أقبض ثمنها .

كان يمكن أن أطيل الحديث كي أقبض مبلغاً أكبر، ولكنْ عليّ أن أكون معقولاً .. أوازن بين الممكن والمستحيل ، فقد ترى الجهة الناشرة أن عدد الكلمات فاق الحدّ مما يتطلّب مبلغاً كبيراً فلا تنشر ماكتبت. لهذا لن أطيل . فقط، سأطرح سؤالاً يلحّ عليّ :

هل غدا العالم مقبرة للجمال، أم أنّ مدينتنا – وحدها – مسؤولة عن نهايات القيم؟ أم تُراه ظلماً وقع عليّ ولم أقوَ على ردّه فانقلبت من الشيء إلى نقيضه ؟ ..

لاتجيبوني لأنّي لن أدفع لكم ثمناً للجواب ...

الآن .. لامال عندي أهدره للحصول على إجابات ..

سأصلّي ركعتين .. لعلّ الله يهدي إليَّ الجواب .

قبـل الانفجــار

ماأعرفه كثير، وما أعانيه أكثر، وبالرغم من ذلك لاتتغيّر قناعتي بأن الحلم سيّد الأخلاق، وأن التدرّج خير الوسائل لتخليص أنفسنا وتخليص الأمة من أوثان العصر، ومن وحل التردّي الذي نعانيه في علاقاتنا اليومية .

أعرف أنني من (الكتبة) الذين يثرثرون بما يوحي للآخرين أننا نمارس جعجعة ولا ننتج حبّةً من طحين. ولكنني – ككل البسطاء القانعين – لاأطلب مالاً كثيراً ولا أطمع في منصب أو وجاهة. ولكنني – أيضاً – ككل الذين يبحثون عن مظلّة أو رابطة تقيهم غدر الزمان والتيه في الأوطان.

ولهذا بادرت للانتساب إلى اتحاد الصحفيين واتحاد الكتاب العرب وجمعية حماية الآثار ونادي الوفاق ، كي أحتمي من آكلي لحوم البشر الذين لايتورّعون عن خطف اللقمة من أفواه الجائعين ليغتنوا. وتوهّمت ان شرف الانتساب إلى تلك الروابط والاتحادات، يعزّز كرامتي ويقيني من أسماك القرش البرّية، من خلال إدراكها أنني لستُ وحدي من يواجه الكبار الذين يحاولون أكل صغار بني جنسهم.

ولكنّ الذي حدث أن بيتي قد اقتُحم بطريقة تلفيقية، وورد في وثيقة الاقتحام أنني قد بُلّغت لصقاً، وبحسب القوانين الإدارية (قوانين الطوارئ للبلدية (؟))، تشكّلت كتيبة سريعة من أجل إزالة آثار تغييري لمعالم المدينة، وتشويهي للوجه السياحي فيها، حيث غدا منزلي نادياً للمثقفين، يتبادلون فيه إلقاء القصائد والقصص.

الكتيبة البلدية عملت بعنف وجدّ ولم تأبه لكسر طاولة الدراسة وبعثرة ملخّصات وكتب بناتي اللواتي أُصبن بالذعر، حتى أن ابنتي البالغة من العمر تسع سنوات سألتني وهي ترتجف من الخوف: أليس هذا مشابهاً لما يحدث في كوسوفو ؟

ماأعرفه كثير، وما أعانيه أكثر، وأخشى ماأخشاه أن تسوّل لي نفسي بإعادة ارتكاب الجريمة نفسها بفتح منزلي الذي أملكه محجّة للمثقفين.

فأمـا الزّبـد فيذهب جُفـاءً

كم واحدٍ منا يحتاج إلى مبضع جراحة الروح لنستأصل الفاسد من أفكارنا !.

كم فكرةٍ يلزمنا كي نتحول إلى الفعل وندرك أن اختيار العزلة ارتداد!. قد نُدفع إلى حافة اليأس، وتُكحّل أيامنا بالسواد، ونحن نبحث عن الحقيقي في قلب الزائف. وعن معنى الحقيقة على قارعة الرصيف، ولكنّ الفرق شاسع بين أن نقاوم الشر حتى وهو يغلّ أيادينا، وبين أن نستسلم للانزلاق في هاوية اليأس. الحقيقة والصدق والإخلاص ليست أوهاماً في رؤوسنا، وإنما هي قيم لاتستسلم إلاّ لمن يعرف قيمتها، ولا تومض إلاّ لمن يفتّش عنها بدأب فاعل، اطلبوا تجدوا، واسألوا تُمنحوا، كلمات خالدة تحتاج إلى من يترجمها عملاً ليمتحن قدرتها على تحرير الروح من زيف المكانية العابرة. و" من رأى منكم منكراً "، ليست جملة استفهامية، بل هي وحي يأمر بالمعروف ويأمرنا أن نأمر به كي يستقيم اعوجاج حياتنا التي غرقت في الممارسات المعتمة حتى بتنا نبُوء بها ظانّين أن الزمان كفيل بلأم جراحنا.

ولكنّ التاريخ لايسير دائماً نحو الأفضل، مالم ندفع عجلته بالاتّجاه الصحيح، جاءت حضارات واندثرت، ولم يبق من الماضي سوى مايصلح للبقاء، ((فأمّا الزبد فيذهب جُفاءً، وأمّا ماينفع الناس فيمكث في الأرض)).

وجاء الإسلام ليجبّ ماقبله، وقد آن الأوان لنعيد حساباتنا وننصرف عن الانشغال بالتسفيه أو بالإعجاب، لنصرف طاقاتنا بما يرفع قاماتنا من غير أن نفقد فضيلة التواضع.

كم إثمٍ يكفينا كي نتوب ونؤوب إلى أنفسنا، ونكفّ عن تكفير المفكّرين لأننا لم نُمنح عقولهم!. وكم أمثولةٍ نحتاج كي نتيقّن أن للباطل جولة لابدّ زائلة، وأن الحقّ لابد آت.. فاطلبوا تجدوا واسألوا تُمنحوا... "وما ذلك على الله بعزيز ".

مكافحة البطالة
وفق توفر الشاغر والاعتماد

ربما يكفي العنوان عمّا نريد الإفصاح عنه، ولسنا بحاجة للدخول في دائرة البطالة المقنّعة من خلال عملية اللف والدوران التي يمارسها أولئك الذين يريدون إيهامنا بأنهم يعملون، فنطيل الحديث ظانّين أننا نقوم بعمل نافع.

كذلك الماء الآسن الذي ننقله من حوض إلى حوض لندّعي بأنه طاهر مادام ماءً جارياً، بعد أن أبعدنا عنه صفة السكون بالخدعة.

وربما لسنا بحاجة إلى كاريكاتير يصوّر لنا إنساناً يدفع عربة للخضار مزيّنة بالشهادات التي يحملها تعبيراً عن غربته في بلد يُحسب من المدافعين عنه بشراسة أمام مدّ الصهينة والتطبيع. وليس مستبعَداً – مع أنه غريب – تكرار مشهد أحد الأدباء البارزين وهو يحمل صندوق مسح الأحذية من غير أن يستطيع سد رمق أبنائه حيث يتورّع حتى أخصامه عن أن يكونوا من زبائنه، احتراماً لمركزه الأدبي.

إذا كنتَ عاطلاً عن العمل، جرّب المنظمات التي تنتمي إليها علّها تساعدك على إيجاد عمل، فإذا لم يفلح ذلك ولن يفلح، وكنت من العاطلين الموسرين، جرّب التنقّل على أعتاب الوزارات لعلّ أحدهم يشفق عليك حيث تقدّم طلباً لديه وتضع عليه الطوابع اللازمة ثم تراه مذيّلاً بعبارة " مع الموافقة أصولاً " وأصولاً هذه تعني أن تدرج في لائحة العاملين بعد توفر الشاغر والاعتماد المالي. وبما أن الاستقالات لاتُقبل، وليست هناك فرص عمل جديدة، فما عليك سوى انتظار موظف يتقاعد أو الدعاء على أحد الموظفين ليقصف الله عمره وتأخذ مكانه بعد أن يصبح شاغراً.

فإذا كنت من العاطلين عن العمل وتتمتع بصبر أيّوب، عليك أن تكون مواطناً صالحاً وتقدّم كل طلبات التعيين الممكنة لدى جميع الجهات كي تساهم في مكافحة البطالة وفق توفر الشاغر والاعتماد، وبذلك يتسنى لك الموت واقفاً قبل أن تصبح مت قاعداً. وليرحمك الله.

أوقفوا هذا النزيف

لا شكّ أنّ المثقّفين يدركون ، وهم قادة التقدّم ، أن تكاتفهم ، فضلاً عن أنّه يحميهم من براثن الأخطار المداهمة ، مهما عَظُم شأنُها ؛ لا يلبث أن يمتدّ ليصبح مثلاً يُحتذى لدى الآخرين . وكذلك يحدث إذا تبادلوا الاتّهامات . ومن ذلك ما يحدث أحياناً بين أديبين عندما يختلفان بالرأي حول مسألة ما، فيمتطي كلّ منهما صهوة الانفعال العابر ، على حساب التألّق الفكري ، محاولاً البرهنة على أنّه ناقد بارع فيمسي معلّماً فجّاً لم تنضج أدواته الاصطلاحية بعد ، ولم يتعلّم كيف يرقى بلغته ، فيصير كمن أراد أن يقبّل فعضّ ، من خلال كلماته المهذّبة التي تحمل في طيّاتها تعالياً لاذعاً لا يمكن أن يتحمّله صديق من صديق.

والأحرى بكلّ منهما أن يحترم الآخر كي لا يساعد المحيط على تيئيس صاحبه . وحين يكون صادقاً في الودّ ، يبادر إلى ذكر ما يعزّز رؤى الآخر التي يتفّق معه فيها ، قبل أن يشهر سيف القذف بوجهه . والمحبّة . عادةً . تدفع الغيور على صديقه إلى حوار هادئ يوضّح فيه نقاط الاختلاف والاتفّاق وأسبابهما ، بعيداً عن التشهير أو التملّق . فيحاول الإصلاح ، بدلاً من محاولة إخفاء حقيقة شعوره بالنقص ، فيخونه التعبير ليستمرئ لعبة الولوج في الاتّهامات التي تفضي إلى الجهل ، ثم يضطر إلى مسامحة صاحبه زاعماً أن الحقيقة فوق الصداقة : ألم يعلن أفلاطون قديماً حبّه لها أكثر من حبّه لسقراط ؟

ولكنّ الحقيقة المخفيّة . هنا . أنّ ما يجري بريء من النقد ، ولا ينتمي إلاّ إلى عائلة التجريح التي أفرزت فعل تحطيم التماثيل الجميلة ، تماماً كما فعل الناس بفينوس ليبقى القبيح سيّد الموقف . وتُحلّ المشكلة بالعناق والمسامحة ،ويبقى في نفس كلّ منهما شيء ممّا كان .

مثل هذا التسامح يمكن أن نعدّه إحدى المعضلات في تباعد المثقّفين.

التسامح يعني أنني أخالفك الرأي ، ولكنني . كرماً منّي . أغضّ الطرف عن ذلك الاختلاف ، وبذلك أكون قد تجاهلت حقّك في أن يكون لك رأي مخالف لما أعتقد بأنّه صواب.

جاء في لسان العرب (تسامَحَ أي تساهَلَ) أمّا في تعريفات الجرجاني فإنّ (المسامحة ترك ما يجب تنزّهاً).

فهل يقبل أحد منّا هذا الكرم ؟

وعلى هذا ألا يكون الحوار والاتفاق على الاختلاف أولى من التسامح على مضض ؟

فمتى نوقف نزيف التجهيل والإدانة بين المثقّفين لنتوصّل إلى نقد سليم ؟..!

بيروت في عيون الحلبيين

بيروت امرأة زئبقية شاسعة .. تستعصي على التأطير والقولبة .. تستأثر بأرواح محبّيها ولا تسلم قيادها أحداً ..

في كل مرة أحج إليها تبهرني بجمالها وصراعاتها وأحزابها وكثافة ينابيع الثقافة فيها..

يتداخل ليلها بنهارها كزوجين يفيضان بالعطاء ..

ويخاصر بحرها المديد جبالها التي تحضن بيوتاً يقبع فيها عمالقة حيث ترسم ديانا غادة السمان وهي تكتب عن خواتيم أنسي الحاج وهو يستمتع بشدو فيروز ..

وتزدحم بيروت لتنتج فتفيض ينابيعها نزار قباني ومحمود درويش وماجدة الرومي .

بيروت معرض كبير لتلاقي دور النشر بالملاهي ، والمساجد بالكنائس ، وهي مرتع المفكرين وملجأ المعذبين في الأرض ...

بيروت جربتني فاقتحمتها في عزّ الصهيل فتحديت الموت فيها في الثمانينات وأنا مصرّ على الدراسات العليا فيها ، وتحت القصف كنا نناقش أهم الموضوعات الفكرية والقضايا المعاصرة .. وعلى أنغام القنابل كنا نترنح بالسلام .. فيها تعلمت التفكير الحر المستقل عن النزعات الايديولوجية المبتسرة ..

ومن بشارة مرهج تعلمت كيف يمكن أن تكون وزيراً وإنساناً معاً .

صحيح أنني تجرجرت فيها من حزب إلى حزب ومن عصابة إلى عصابة ، ولكنني . أيضاً . اكتشفت أن كل الاتجاهات فيها تحترم الجامعات والمؤسسات الثقافية اللبنانية ولا تأخذ المنتسب إلى إحداها بجريرة المسلّحين .

وجربت بيروت فاكتشفت طفولتي فيها حيث علمتني المحبة فصرت أحب إنسانيّة أعدائي الذين يدافعون عما يرونه صواباً ..

آه يا بيروت .. إنك عاصمة الحب ومدينة الحرية بامتياز ، ولهذا يحاربك الآخرون، **ولهذا . أيضاً . تصمدين .**

بيروت امرأة زئبقية شاسعة مستعصية على الفهم .. ولهذا نبقى نحبها بكل تمرّدها الأليف .

مكابدات صحفية
التدقيق وسرّ الغضب

لم نكن ندري أسباب التوتّر الذي يسيطر على الزملاء في قسم التدقيق بالجريدة، خلافاً للانسيابية التي يتمتّع بها الزملاء في الأقسام الأخرى.

في غمرة انشغال المدققين وتداخل أصواتهم في قراءة النصوص ومتابعتها، يدخل أحد الذين يكتبون من خارج الصحيفة قائلاً: لقد أغفلتم وضع (الشدّة) فوق كلمة (حمّام) من قصيدتي فصارت تُقرأ (حمام)... وآخر يتساءل عن سبب إغفال همزة (الإستعمار) من نصّه .. هذا بعد أن يكون رئيس التحرير وأمين التحرير ومسؤول الصفحة قد أنّبوا جميعاً المدقق على إهماله الفظيع، حيث يشرح كل واحد منهم للمدقق أصول العمل مذكّراً إيّاه بواجباته. المدقّق صاحب العلاقة يثور في وجه الشاكي مما يجعل تقويم الخطأ عصيّاً.. وآخر يختصر النقاش قائلاً: ياأخي أخطأنا.. جلّ من لايخطئ.. لو قرأت نصف هذا الكم من (الإبداع) لعدوت هارباً من العمل الصعب. ومما يزيد الأمر صعوبة افتقار الجريدة إلى مكتبة مرجعية، ولهذا نجد تعليقات بعض المدققين على الأوراق التي بين أيديهم حين يواجهون نصّاً محيّراً أو كلمة يصعب إعرابها فيكتبون على هامش التنضيد: لو كان لدينا معجم لألفاظ القرآن الكريم ومعجماً نحوياً ومعجماً لغوياً وبعض المصادر المهمة للتحقق من صواب بعض الكلمات، لكنّا صحّحنا ونحن مطمئنّون، ولأننا لانملك مكتبة في الجريدة، نضع اجتهاداتنا.. والله أعلم.

وممّا زاد (الطين بلّة) هذا الاستنفار المفاجئ لطباعة الكتب المدرسية مما أدى إلى تقليص عدد المدققين وصار الواحد (يمقمق) عينيه في التنقّل بين النص – الأصل (بخطوطه العبقرية) والنص المنضَّد الذي يصرّ (الكومبيوتر) على قلب بعض حروفه، فضلاً عن سهو المنضّدين وهم يفكّرون في باب استدانة لدفع فاتورتي الهاتف والكهرباء.

هذه بعض أسباب التوتر التي لم تُتَح لي فرصة تشخيصها إلاّ بعد أن قرأت عرض رئيس التحرير لكتاب (نظريات الأيام المحيرة في الغضب والأعمال العدوانية) الذي يوضّح فيه المؤلف لماذا نكون غضوبين وعدوانيين في أيام، وفي غيرها لانكون.

يبيّن الكتاب أثر العوامل الاقتصادية والسيكولوجية والفيزيولوجية والجوية في النفس البشرية مما يؤدّي إلى الغضب. لكنني – في حالتنا هنا – اكتشفت عوامل أخرى لاتقلّ

أهميّة عن تلك: فتداخل الأصوات، وضيق الغرفة، وعدم وجود منفذ للتهوية فيها، كل ذلك يجعل من غرفة التدقيق مكاناً مثالياً لإثارة الغضب. وربما للسبب نفسه، فضلاً عن عوامل أخرى، نجد رئيس التحرير مرحاً ودوداً، فهو يقيم في غرفة واسعة وهادئة، وكذلك غرف المحررين حيث نجد قلّة في عدد السكان ووسعاً في المكان.

لكن الذي مايزال يحيّرني إلى الآن وجود غرفة واسعة في الجريدة لايشغلها كثيرون، ولكنّ التجهّم باد على أصحابها لأسباب لانعرفها، مما يجعلنا في حيرة من أمرنا حيث لايمكّننا كتاب الأيام المحيّرة من الإجابة عن مثل هذا السؤال. كما أن إشاعة جو الغبطة المفاجئ الذي يجتاح التدقيق والتنضيد معاً نتيجة إطلالة رئيس التحرير أحياناً، لايمكن تفسيره من خلال ذلك الكتاب أيضاً. مما يعني أن في النفس الإنسانية خفايا تستعصي على كل علم.

مكابدات جماهيرية
- المنسيّـون -

إذا أردت أن ترى عملاً وظيفياً حيوياً عليك أن تدخل غرفة التنضيد والإخراج في مبنى جريدة الجماهير.

ولأن ذلك متعذر بسبب وجود لوحة على الباب " يمنع الدخول إلى قسم التنضيد لغير العاملين في الفرع " ننقل لك مشهداً مصغّراً للمكابدات اليومية التي يعانيها المدققون والمنضدون والمخرجون.

أول مايطالعك في القسم صوت " أبو النور" : يارب /٣/ بالشهر ولم يبق من راتبي "الدومري". لم أفِ ديوني.. ولم أدفع فاتورة الكهرباء..

قالت أميرة: – مامبلغ الفاتورة ؟

قال: – /٣٨٠٠/ ليرة هذا ماعدا الغرامة التي لاتُعطى وثيقة بها.

سألتُه باستغراب: – ماالذي تفعله بكل هذه الكهرباء ؟

أدار كرسيّه باتّجاهي وراح يعدّ على أصابعه: غسالة .. مسجلة .. تلفزيون.. عصارة.. ماكينة كبة .. سشوار.. حتى زوجتي على الكهرباء ... أولادي الثلاثة على الكهرباء.. وأنوي – إن شاء الله – أن أوصي على رابع.. عالكهرباء.. طبعاً. راتبي /٣٣٠٠/ ل.س ولا أدري كيف سأتمكّن من صرفه خلال /٣٠/ يوماً فقط .

قلت: – مع الأولاد؟ ... ضحكت أنيسة بعمق في حين قال: – هذا الراتب بعد الزيادات وبعد خدمة عشر سنوات.. ولو أنّهم اخترعوا جهازاً لـ / مط / الراتب لكنّا في غنى عن العمل الأساسي المسائي. والمشكلة أنّ آلة / مط الراتب / إن اخترعوها ستكون.. أيضاً على الكهرباء.. صمت برهة ثم قال: – ألم تعلم أن مديرية الهاتف غرّمتني بمبلغ كبير لأنّ عطلاً فنيّاً ظهر في مقسمي.. في البداية صعقت لأن المبلغ /١٢٠٠٠/ ل.س وبعد مراجعات متعدّدة اتضح أن كلفة الإصلاح هي فقط /١٢٠٠/ ل.س أي أقل صفراً من الرقم السابق... لذلك حين طلبوا مني /١٢٠٠/ أخرى دفعتها بسرعة قبل تغيير رأيهم وإضافة صفر آخر. ياأخي.. لاأتحدّث على الخطوط الساخنة، وكيف حدث عطل في المقسم لاأدري.. ولماذا أدفع الإصلاح وحدي دون خلق الله أجمعين.. أيضاً لاأدري..

قال له أحمد: – اعتبر أنهم وضعوا صفراً جانب الرقم.. واعطني المبلغ كي أسدّد به جمعياتي.

قلت له: – ألم تدخل في جمعية منذ شهرين كي تسدّد الجمعيات التي شاركت بها سابقاً ؟

قال: لا.. هذا أمر جديد سأحدّثك عنه فيما بعد.

وحتى يحدثني أحمد عن سره يبقى للحديث صلة.

فمن يعي أحزاننا نحن الذين نوصد أبواب الشكوى كي ينعم الأصدقاء ببريق ابتساماتنا؟

وحين يقتحم المساء أسوارنا نغصّ بأيّامٍ تقتل أحلامنا.. واحداً.. واحداً..

نفترش آلامنا حتى الصباح، حيث نرشُّ الفرح مع العصافير.. لأنّنا تعبنا من البكاء.

من يدرك وحشتنا التي تقضمنا ببطء، ونحن نعدّ خيباتنا زفرة.. زفرة، على مرمى عمرنا الذي يتكوّم خلف مرآة تكشف كحل الجفون.

نحن الذين نعجز عن تكوين بيت صغير فنبني سرطاناتنا خليّة خليّة، كيما ندّعي أننا نفعل شيئاً في عالم وحشي يهدر أعمارنا.

من يعلم أننا ننتهي من أعباء النهار ثم نغوص في مسامات ليالينا الطويلة .. نصنع القهوة، ونحسب كم من العمر يمضي، وكم من الوقت يكفي لنحقّق أصغر أحلامنا..

نشرب القهوة ونحلم بورقة يانصيب تنقذ ماتبقّى منّا في منزل رطب في مبنى متصدّع في شارع منسيّ يقبع في زاوية مدينة مقهورة يتبختر فيها القادرون بأسلحة لم يصنعوها بأنفسهم ويعتاشون من عرقنا في الصباح، ومن بعض دمائنا المباحة في الليالي الكالحة.

من يعبأ بنا نحن الذين نجلس إلى صحن بللوري فارغ ثم نأكل أنفسنا كي لانموت.

تاج بلا سلطة

ماجدوى الكتابة إذا كان الرقيب الذي نحمله في داخلنا أقسى وأكثر إرهاباً من ذلك الذي ندّعي أنه يراقب حركاتنا وسكناتنا للإيقاع بنا؟

لم يعد ذلك الذي يراقب النصوص مخيفاً بالشكل الذي نتوهّمه، لأنه – مثلنا – يدرك أن مانصرّح به لايعدو أن يكون تنفيساً عن أحزاننا على وطن يعاني من ضغوط كثيرة تمثّل قمّتها قوى خارجية تحاول تنمية عداءاتنا بيننا كي نمسي حاملين وحوشنا في داخلنا وماضين إلى حيث لاندري.

نحن – المثقفين – بتنا نتسقّط عثرات أشباهنا، أو يتسقّط أشباهنا عثراتنا محاولين إقناع ذوي الفعل بأننا فاسدون مفسدون. ولم نعد قادرين إلاّ على مراقبة انزوائنا ونحن نحلم برفع دعوى على هيئة الأمم المتحدة بسبب تقاعسها عن المطالبة بتنفيذ قراراتها، وأخرى على بعض الجهات بسبب إهمالها في مسألتي البيئة والحفاظ على التراث.

ماالذي نستطيع الاستمرار في متابعته :

نصف البلد تنعم بمخالفات متعدّدة من كل الأشكال والأنواع.. منها مايؤثر على أسس المباني، ومنها مايؤثّر على البيئة فيزيدها تلوّثاً.. ومنها ماينشر السموم بين أبنائنا وذوينا..

المرور لايعبأ بالمخالفات ولا بالضجيج.. مئات المركبات تنشر خلفها سرطاناً مرئيّاً يلتفح بالسواد.. وعشرات تحمل طابع وقود وتستعمل آخر... الأبواق تصمّ الآذان وتكاد تصيبنا بالجنون.. ومبانٍ كثيرة تعاني من سوء الصرف الصحي فتتجمّع الأقذار في الأقبية ويضطر سكّانها إلى استعمال طرائق بدائية للتخلّص منها خوفاً على مبانيهم من الانهيار... البلدية ليس لديها القدرة على تغطية تكاليف تجديد المجاري كي تجاري التوسّع السكّاني الجديد..

المرور لايستطيع أن يوظّف لكل مركبة شرطيّاً يراقبها.. ولا لكل شرطي شرطياً ليراقب استقامته...

التموين ليس لديه العدد الكافي ليقمع الغش والاحتكار والتلاعب بالأسعار...

التربية لايمكنها أن تركّب ضميراً لكلّ معلّم .. والمعلم لايكفيه الراتب مما يضطره إلى القيام بعمل آخر يحصّل منه الدخل الأساسي، مما يجعله يهمّش العمل التربوي، فيذهب إليه بنصف صحو وربع وعي وبكثير من الاستهتار وانعدام الهمّة. وإلاّ فإنه يعمل بجدٍّ ويعاني.

لكلٍّ همومه ومشاغله ومسوّغات فساده أو ثوابت استقامته. دعونا نبدأْ من هنا، من ركن الصحافة الذي يُفترض أنه ركن أساسي في شرح هموم المواطنين، ومنبر آلامهم وآمالهم. إذا كان الكاتب وطنياً صادقاً ينبري لتعرية الفساد ورسم معالم آفاق التطوير المبتغاة، ويمتلك أسلوباً راقياً أو معقولاً في خطابه؛ فما الذي يمنع من منحه هامشاً واسعاً من الحرية كي يساهم في بناء حضارة الأمة ؟! ..

لاشيء يدوم، وتبقى ذاكرة الأمة حافلة برافعي ألويتها نحو المجد، فمن ينس العُمَرين وصلاح الدين والمأمون وسيف الدولة وسواهم على صعيد الذين يصنعون القرار الصائب بعيداً عن البصاصين وأبي لهب وأبي جهل والحجاج.

ماجدوى الكتابة إذا لم تمتلك جرأة المكاشفة كي تحرّك شيئاً ما في دواخلنا وفي عقولنا؟!..

ماجدوى الفعل القولي الساكن الذي لايهمس لنا بمحبة لكي يدلّنا على أخطائنا وثغراتنا لنعمل على تجاوزها.

أناشدك أيها العالم الثالثي أن تعلن عن يوم الصراحة العالمي.. يوم بلا رقابة يسمح لي بالقول: إنني أحب بلدي، وأحب كل من فيه.. وأتمنى على بعض المسؤولين الذين يتلذذون بفعل (التطنيش) ويرمون أخطاءهم على سواهم... ويتذمّرون... ويتساءلون عن سرّ تأخّرنا عن ركب الحضارة المعاصرة، ويتجاهلون وضوح الإجابة حتى في ليلة يشتد فيها الخسوف... أتمنى عليهم أن يفتحوا سجلاً سرّياً خاصّاً بهم.. يراجعون فيه مواقفهم.. يحاكمون أنفسهم.. يصدرون عنهم العفو العام... ثم يقررون أن يستقيموا – هنا والآن – بمساعدة صاحبة الجلالة التي تحاول أن تمارس دورها في كشف الفساد والمفسدين.

وبداية البدايات تكون بإعادة التاج إلى السلطة الرابعة التي يعمل فيها المحررون وأيديهم على قلوبهم خوفاً من خطأ غير مقصود قد يودي بهم إلى حيث لاشمس ولا هواء .

لقد أثبتت الحضارات المتوالية عبر العصور أنها لايمكن أن توجد في محيط لاحريّة فيه. دعونا نتكاشف بحرية كاملة لنقوّم اعوجاجنا ثم نكتشف أن حوار الحريات أكثر متعة من الحوار الذي يقوم بين السيد والعبد، لأن هذا الأخير يخفي مايخشى على رأسه من البوح به، مما يجعل الأمور تبقى على ماهي عليه، بل تتفاقم من سيّئ إلى أسوأ.

من منّا يمكنه الادّعاء بأنه أكثر وطنية من سواه؟

وما دمنا – جميعاً – نحاول تحسين أسلوب عيشنا – هنا والآن – فإن أفعالنا وحدها هي التي تنبي عن صدق مانقول.

السلطة الرابعة
مجرد حبر على ورق

في مطلع الألفية الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام الذي اتّبعنا تعاليمه –نحن المستضعفين في الأرض–، صُفعنا وأدرنا الخد الأيسر بانتظار ثمرات أقواله: اطلبوا تجدوا.. واسألوا تُمنحوا. مانزال– حتى الآن – ننتظر تجسيد الشعارات إلى خطوات عملية،أو –على أقل تقدير– أن يتوافق الفعل مع القول حتى لو اضطررنا إلى التخلّي عن قول مالا نستطيع فعله.

لقد بدأت الحضارة من هذه الأرض منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، وما نزال غير قادرين على احترام القلم الذي يترجم آمال الناس وآلامهم.

لن نتحدث عن مئات الصفحات التي ناشدت وزارة الداخلية كي تتخذ إجراءات صارمة من أجل منع الضجيج وأبواق المركبات التي تدفع المرء إلى الجنون.

ولن نتحدث عن (تطنيش) وزارة التموين عن إعادة التموين المدعوم للأرز وعن انتظام توزيع السكر على المواطنين المطحونين، وعن تحسين وضع الرغيف وإباحته من غير ازدحام.

ولن نشغل فكر وزارة المالية بإعادة تنظيم الشرائح الضريبية وإسقاط الضرائب عن الموظفين.

مانطرحه هنا ليس سوى سؤال واحد بسيط لاتحتاج إجابته إلى جوائز رمضانية تعطّل أعمال الهاتف طوال الشهر الكريم، وهو: متى تصبح الصحافة سلطة رابعة حقاً بحيث تستجيب السلطات الأخرى إلى مطالبها التي تدفع الظلم عن المواطنين؟!...

عرس الصحافة

تحتفل الصحافة بأبنائها ويرتسم على وجهها نصف ابتسامة... ويحتفل أبناؤها بها، كلٌّ على طريقته. أمّا طرائق الاحتفال فإن اختلافها يُعزى إلى أساليب الأبناء، منهم من يصفّق لها بفرح شديد حاملاً كلّ لافتات الوفاء والولاء، مزيّناً ديباجاته بشعارات برّاقة لايختلف على جودتها اثنان. ومنهم من أدرك أن (اليد التي تصفّق لاتعمل) لذلك يكتفي بإظهار احترامه ومحبته من خلال عمل دؤوب يساهم في إعلاء شأن الأم والحفاظ على كرامتها.

أما نصف الابتسامة التي تنغّص فرحة الأم – الصحافة بأبنائها، فذلك عائد إلى اختلاف الأبناء أنفسهم، فمنهم العاقّ الذي يبدي مالا يعتقد به ويخفي مايظن أنه يُلحق به خسارة متوقّعة، فيُفرغ دور الصحافة من محتواها غير معترف لها بأي فضل على محيطه أو بأي أثر لها في كشف الأخطاء ورسم معالم طريق التقدم. ومنهم من يضطر إلى المحاباة حفاظاً على لقمة العيش وبحثاً عن منصب رفيع، ظناً منه بأن التملّق أقرب طريق إلى قلب السلطة، ناسياً أو متناسياً أنه يستظل بسلطة رابعة تساهم في تقدّم أمته وفي رفع شأن بلاده، وفي الحفاظ على باقي السلطات نظيفة تتولاّها أيدٍ أمينة. وربما يكون مردّ نسيانه إلى أنها سلطة بلا جيش وبلا سلاح وبلا سجون، وإنما تعوّل على القلم وحده هادياً ومنيراً.

أما الأبناء البررة – الصحفيون المخلصون، الذين يحترمون أقلامهم مما يدلّ على تقديرهم الكبير للأمّ الصحافة، فهؤلاء لايتوانون عن قول الحق الذي يعتقدون به من غير أن يأبهوا باستدرار عطف الآخرين، ومن غير أن يهابوا في الحق لومة لائم. هؤلاء صدقوا ماعاهدوا الصحافة عليه من غير حاجة إلى قَسَم بالولاء. إنه الارتقاء الذاتي الراشد الذي ينمّ عن تقدير الذات وطلب الكرامة، مما يدفع بهم إلى التوعية والإرشاد، وإلى الحرص على تبيين وجهة نظرهم في مايرون ويسمعون. إننا

– جميعاً – نسمع ونرى، ولكن بعضنا فقط هم الذين يتكلمون – وهم وحدهم – بحقّ – الصحفيون الذين تحتفل الصحافة بهم ويحتفلون بها. فهنيئاً لكلّ قلم يكتب مايفكّر فيه ولا يكتم في نفسه شيئاً من الحق، وطوبى للذين يسهمون في توطيد السلطة الرابعة وفي الحرص على استقلالها الذي تسعى إليه في القرن الحادي والعشرين.

وكي لانكون من الذين يروّجون لبضائعهم ويحتفلون – وحدهم – بما ينتجون، نرجو من القراء الأعزاء – الوجه الإبداعي الآخر للصحافة – أن يُبدوا وجهات نظرهم في مايقرؤون. كما نثمّن عالياً كلّ بادرة طيّبة تقوم بها السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية لتعزيز السلطة – التوأم – الصحافة، ودعم استقلالها وتنوّعها واحترامها.

وكل عام وصحافتنا بخير.

قالت لي الشهباء
صُن ما أنت فيه

ما الذي يدعوك إلى شن حرب شعواء على قول كلنتون ((العرب يصنعون رقائق البطاطا في حين يصنع العالم رقائق الكومبيوتر))؟ وهل يزيدون راتبك إذا حاولت ترجمة اسم الرئيس الأمريكي الجديد (بوش) إلى اللغة العربية أو الفارسية أو التركية؟

وما همّك من مشكلة المواصلات مادمت تقطن في شارع قريب من وسط المدينة؟ ماهمّك من البيئة والنظافة والضجيج؟!..

ألم تتعلّم – بعد – ممارسة عملك بشكلٍ تقليدي من غير أن تحاول إقحام نفسك في مالا يبدو مؤهَّلاً للإصلاح؟

منذ عشرين عاماً يتحدث الناس عن مشكلة الرغيف في حلب، وعن السر الخفي وراء الازدحام على الأفران للحصول على شيء مايشبه الرغيف... من بعيد، وما يزال الوضع كما كان عليه، فما جدوى الشكوى وأنت تعلم أن الشكوى لغير الله مذلّة ؟!..

في كل صحف العالم هناك موضوعات لاتجوز مقاربتها، وهناك أشخاص عليك أن تتكيف مع نزعاتهم الخاصة من غير أن تحاول شرح وجهة نظرك فيهم أو في تصرفاتهم.

والبيروقراطية .. هذا الشيء الذي يدسّ أنفه في كل شؤوننا اليومية، مفهوم متجذّر في ممارساتنا، ومستعصٍ على أي حلّ.

وحتى أنا الشهباء، صاحبة قلعتَي حلب والفكر، لايمكنني أن أقول لك كل مأريد قوله. وحتى إن فعلت، لايمكنك أنت أن تنقل عن لساني كثيراً مما أبوح به. لذلك تناول أي صحيفة من أي عام كانت، اقرأ بعض العناوين واختر مشكلة عادية منها، أعد صياغتها بأسلوبك.. سوّد فراغ الورقة البيضاء وادفع بها إلى النشر، تُحسب لك مادّة للنشر.. وتجنّبك الخوض (في الممنوع) ...

وإلاّ .. خذ بنصيحتي واسكت عن الكلام المباح حتى يأتي الصباح فيخوض العالم في ماليس من خوضه بدّ، حينذاك تبدأ فعليّاً حرب النور على الظلام من أجل عالم فيه ظلم أقلّ، واحترام أكثر للإنسان.

مكاشفـــة

اثنان في يوم واحد أثاراني، المحامي الذي استشرته في أمر دعوى محاولة نزع بيتي منّي، والأديب الذي بدا متحيّراً كيف يمكن أن يقنع الآخرين كي يكاشفوه .

أما المحامي، وهو حقوقي قدير يمارس المهنة منذ عقود، فقد بدا حذراً يراقب الباب وأنا أشرح له مشكلاتي .

يبدو أن المشكلة بدأت من عندي... لماذا تزوّجت وأنجبت أطفالاً ثم سعيت كي أؤمّن لهم مسكناً... وفوق ذلك كلّه .. أردت أن أحمي بيتي بنقل سجلّه لاسمي، بعد أن أسهمت في الكثافة السكانيّة التي لاتحتملها إمكانيات البلدية في مدينتي ...

أنا أتكلّم وعين المحامي على الباب ويداه على بطنه كأنّه يريد حجب صوتي عن الرقيب الذي يقبع في داخله.

أما الثاني، وهو أديب مرموق، يفكّر كيف يمكن إقناع المثقّفين بالتجاوب معه كي يحقّق الغاية من برنامجه الإذاعي الجديد " مكاشفات " ..

كلّما حاور مثقّفاً أسرّ له بما هو شائع، مما يجعل برنامجه اسماً على غير مسمى، لذلك فقد اقترحت عليه أن يفتتح المكاشفات بي.

وحين تأكّد من أنني لن أبخل عليه بالمكاشفة حول مايقلقني .. تهللت أساريره وأسرع إلى آلة التسجيل قبل أن أغيّر رأيي وأجبن :

– نلتقي الآن مع الأستاذ وائل الكاتب المعروف الذي لايفتأ يتحفنا بأفكاره الجديدة النيّرة التي تساهم في دفع عجلة التقدّم في بلادنا التي نتطلّع إلى إعادة مجدها القديم لتسنُّم قياد الحضارة من جديد...

أستاذ وائل : الصراحة هي الخطوة الأولى التي تقودنا إلى التقدّم .. وبرنامجنا الجديد (مكاشفات) يحاول أن يستنير بآراء مثقّفيه وطرائق تفكيرهم من خلال آرائهم الجريئة والصريحة التي يمكنهم أن يزودونا بها من خلال مكاشفاتهم.. بماذا يمكنك أن تكاشفَنا اليوم ؟

– أرحّب بك وأثُني على برنامجك الجديد الذي يحاول أن يرصد مايعتمل في نفوس الأدباء والمثقّفين، ويحثّهم على قول مالا يقال.. أو مايعدّه الناس سرّاً لايمكن البوح به خشية عواقب الرأي الصريح ...

ولكنّني – بصراحة – أريد أن أكاشفك بأن تفكيري متمحور حول شيء واحد منذ عدة شهور، مما يجعلني أفكّر فيه على الدوام، بل كثيراً مايقضّ مضجعي فلا أنام .. وكل ماأكتبه منذ ذلك الوقت حتى الآن يدور حول الموضوع نفسه، ابتداءً من مشكلة انخفاض أسعار النفط.. حتى مأساة الحياة البشرية التي عانى منها جلجامش وسارتر وابن عربي ...

– أعزّائي المستمعين .. لقد تشوّقنا فعلاً إلى مكاشفة الأستاذ وائل، ولا بد أن تكون مثيرة ... أستاذ وائل نحن نصغي إليك، ماهي مكاشفتك للسادة المستمعين ؟

– إنها مشكلة بيتي ياسيدي ...

– بيتك ؟ أرجو أن توضّح للسادة المستمعين هذا المصطلح الجديد ؟

– ليس مصطلحاً ولا هو بجديد .. كل مافي الأمر أنّني اشتريت منزلاً بعقد، وحين أردت تسجيله، ادّعى تاجر البناء أن العقد مزوّر .

أوقف آلة التسجيل ... رمقني بنظرة عتاب صامتة تحمل علائم الاندهاش، ثم قال :

ألم تكتب سلسلة من المقالات عن تلك المشكلة ؟ ...

– نعم، ولكنها لم تُجْدِ

– والاستطلاع الذي نشرته مع بعض المحامين والمهندسين ؟

– لم يُجْدِ أيضاً .

– ألم تقل إنّ القاضي قال لك: إن إخلاء المنزل مؤقّت ؟

– نعم قال ، وقال أيضاً : إذا عاد التاجر إلى رفع دعوى سنعود إلى إخلائك.

– أين المشكلة إذن ؟

– المشكلة ياصديقي أنّني فقدت احترام جيراني الذين فقدوا الثقة بجدوى العمل في هذا البلد... كل التجار والصنّاع في حيّنا، لديهم بيوت، ولم يجرؤ أحد على نزعها منهم ... أما بيتي فقد نُزع مني ... فما جدوى الثقافة والعلم في هذا البلد؟ وما دمت بلا سقف وبلا أمان ... كيف يمكن أن أناقش مشكلة الصراع العربي الصهيوني ... أو المرايا المحدّبة ؟...

ولم أكد أكمل كلامي حتّى وضع الأديب يديه على صدغيه وأطرق برهة... رفع آلة التسجيل عالياً... أعاد الشريط إلى أوّله :

– أعزائي المستمعين نحييكم ونرحب بكم في برنامجنا الجديد " مكاشفات " وحتى تكون للبرنامج مصداقيتُه ... سأبدأ بنفسي أوّلاً فأكاشفكم بأنّ هذا البرنامج، في ظل مثقّف لايظلّله منزل أو سقف يؤويه، لايمكنه الاستمرار ... أعزّائي المستمعين ... انتهت حلقتنا لهذا اليوم.. بل لقد انتهى البرنامج الإذاعي الجديد في دورته الحالية ...

وهذا (أحمد) يقول لكم : الوداع .

أزمـة ثقـافـة

لم أعد أصدّق كل مايقال عن نتائج الإحصاءات العالمية بعد الذي شاهدته.

تقول اليونسكو في إحدى إحصائياتها إن نسبة التعليم في الوطن العربي لاتتجاوز ٣٩% بينما ترفع الأمية إلى نسبة ٦١%. وقيل أيضاً إن الوطن العربي يترجم كل عام مئة كتاب مقابل سبعين ألف كتاب تترجمه اليابان.

يبدو لي أن هذه الإحصائيات غير دقيقة لأنني صباح هذا اليوم لاحظت ازدحاماً غير عادي أمام أكشاك بيع الصحف، ولأن الصحف في حلب لاتصل من مقر التوزيع إلى المكتبات إلا بعد الظهر، لذلك يضطر المثقفون إلى الاصطفاف في طوابير بانتظار وصولها.

اقتربت من أحد الأكشاك وقد اصطف أمامه أكثر من مئة إنسان، وسألت إن كان هناك خبر غير عادي ينتظرونه، قالوا: اليوم، السبت، ونحن ننتظر جريدة الاتحاد (الرياضية؟!...).

ثقافتنا هي نحن

ربما يكون البكاء الطويل على الوضع الثقافي العربي هو أحد أسباب تردِّي الثقافة لدينا. فما نفع العويل الذي نعيد اجتراره باستمرار ونحن نتابع خطانا الحثيثة باتّجاه تعميق الهوّة القاسية بين مانحن عليه وما نطمح إليه؟!..

علاقة الثقافة بالمجتمع تتضح من خلال تعامل الناس مع المنابر الثقافية المختلفة، ومن خلال موقف قادة المنابر من الناس.

المواطن على امتداد الوطن العربي يتعامل مع المقروء وكأنه حالة (فيروسية) تجلب الفقر والعته لكل من يقترب منها، ولا يرى في المثقّفين (بكسر القاف وتشديدها) سوى مجموعة مرتزقة تعيش في برج عاجي لتنظّر وتمارس تبجّحها وتعاليها على الآخرين.

أما القائمون على الشأن الثقافي، فهم – عموماً وإجمالاً – يتبوأون تلك المراكز لأسباب مختلفة لايشير أيّ منها إلى تميّز ثقافي فيهم. قد يفهمون في كل شيء إلاّ في إدارة علاقة ناجحة مع المثقف والمجتمع. يعدّون المثقف كائنا منتفعاً، ويعدّون الجمهور كتلة غوغائية قد تنفع – في أحسن الأحوال – بوصفها عاملاً شكلانياً يبرز صورة إعلانية معقولة عن النشاطات التي يدّعون رعايتها في منابرهم.

وبعيداً عن كل الأمثلة التي تشرق (أو تُظلم) في ذهني الآن عن حالات ثقافية مستعصية، أوجّه أسئلة مباشرة لكل قارئ مفترَض:

ماالسبب في خسارة الصحف والمجلات الرسمية في كثير من بقاع الوطن العربي؟.

ماالسبب في خواء المراكز الثقافية من الروّاد ؟.

وهل يحتاج التقويم إلى (حدّاد ثقافي) حازم، إذا اعتبرنا الجذر اللغوي للكلمة من ثقّف العود أو ثقّف الرمح بمعنى أنه حسّنه وجعله قابلاً لأداء عمل؟!.

الثقافة ليست خوذة نلبسها فنغدو مثقفين، إنها فعل حضاري متواصل يتّضح من خلال طريقة أدائنا السلام الصباحي، مروراً بأسلوبنا في التعامل مع شارة المرور والحفاظ على النظافة والبيئة وطرائق الحوار، وصولاً إلى تحقيق مضمون الحديث الشريف (إن الله يحب من أحدكم إن عمل عملاً أن يتقنه).

فهل نجد الجرأة في جهة أو شخص يقوم بامتحان عملي لايؤخذ بالشهادات المركونة أو باعتبارات مختلفة لاعلاقة للثقافة بها، وإنما يعمل على (كشف المستور) بغية استعادة سريعة وصحيحة لوضع ثقافي معافى يساعد على تحسين شروط عيشنا – هنا والآن؟!..

فرصة لإعلان الانطفاء

عندما تبادر في الاستجابة إلى نداء صفاء الروح.. تحاول من خلال أفعالك استعادة النشوة التي تنتابك حين تمدّ يد العون إلى الآخرين قبل أن يتلهّفوا أو يستغيثوا ... تتحلّى بأخلاق أجدادك القدامى ولا تتكبر على فضيلة الاعتذار عن أخطائك تجاه أحد.. تذلّ وتسارع إلى الندم.. تغلّب فرحة العمل على لذة الكسل.. تسعى جاهداً إلى طلب العلم احتراماً لمن منحك نعمة العقل لتجعله وسيلة للاعتزاز بالنفس وكسب الاحترام.. تبادر إلى العطاء حتى يظن الآخرون أنك تنصب لهم كميناً تخفي وراءه الثمن المؤجَّل لما تقوم به، ثم تمضي الأيام ويكتشفون أنك تستعيد طفولتك من خلال تمسّك صعب بالبراءة الأولى، لأسباب لاتعلم سوى أنها تحقّق لك صفة التعالي على الصغائر، وتوهمك بأنك قادر على الاستمرار بالشعور المحبّب بأنك عزيز في وطنك وبين أهلك وذويك.. وأن مثالك هو الإنسان الكامل.

عندما تفعل ذلك كلّه عبر عقود تتجاوز أصابع اليد الواحدة وتتجاوز ثلثي عمرك في هذا العالم الأرضي، ثم تكتشف – متأخّراً – أن الذين يسودون لايحترمون التاريخ، وإنما يجعلون منه مطيّة مطواعة يشكلونها وفق مايرون أنه في صالحهم، ولا يغدو تاريخك سوى خطّ عابر فوق الرمال.. ذاكرة التاريخ يبدّلها التأريخ على أيدي أناس يؤذيهم عمالقة الفكر والأدب والعلم، لذلك يغدو التزوير أسهل من العدو خلفك كي تُطال.

إنك على حافّة الخمسين ولم تقتنع بعد بتاريخية اللعب بالتأريخ لصالح الذين لايعملون. تتوهّم أن يُحفظ لك ماصنعت فتُكرَّم وتحظى بألقاب رفيعة تمجّد ثباتك على الحق وإسهاماتك في بناء الوطن. فجأة يُقرَّب حاسدوك، يتلقّون الثناء على مااقترفوه فيتّضح لك السراب الخفي، تقف على حافّة الانكسار، ويتأكّد لك تكرار الخيبة بعد أن تنحسر الغلالة عن ظلام دامس يخفي وراءه حقيقة مكروهة فترى التاريخ يعيد نفسه وتُجبَر على الاقتداء بثعبان يرتدي زيّ الإمام... فتؤثر الاعتزال. عندما تتأمّل فعلك، وترى ثوابك عقاباً، تصبح مثلي وتنضم إلى قافلة الذين انقطع بهم الأمل وانحسر الرجاء فآثروا الاعتزال وامتطوا أوّل فرصة لإعلان الانطفاء في زمكان لايناسب فيه الظلاميون الضياء.

نعم – أيها الراشد – نحن المثقفين ثرثارون ملحاحون، ولكنَّ إعلان الصمت لدينا يعني الكثير من الكلام. وهجرتنا إلى الداخل تعني اهتماماً أليفاً رحمانياً بالآخرين.

وإننا حين نعلن الاعتزال، نبطّنه احتجاجاً خجولاً نأمل أن يفصح عن مطالبنا، لأننا –في الواقع – نمتثل الحديث الشريف: **(إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها).**

ونحن كذا أبد الدهر فاعلون.

خارج السرب

ينطوي مقال اليوم على حزن مركّب، وذلك لأن فاجعة الرحيل المبكّر للأديب تعادل الاكتشاف المتأخّر لأدبائنا الأحياء الذين نلتفت إليهم – في معظم الأحيان – بعد رحيلهم عنّا بوقت طويل.

وغالباً مانلاحظ أهميتهم بعد أن تُعرف إبداعاتهم عبر الآخرين.

يعيش الأديب بيننا وحيداً غريباً يجذف خارج السرب، لاينقصه العوز، ولا يفتقر إلى ملامسة استجداء المعاملة الحسنة والاحترام من جيرانه وذويه ومواطنيه، وبخاصة من بعض موظّفي دوائر الدولة المختلفة، الذين ما إن يعرفوا أنه "مثقف" يحترف الكتابة حتى يتبادر إلى أذهانهم أن " العمل ليس عيباً " ومع ذلك لايعفونه من الرسوم " المستورة " التي يبتدعونها في كل المناسبات.

ويبقى المثقف "خارج السرب" يناشد الآخرين استعادة القيم الأصيلة في تراثنا واستعادة احترام الإنسان لأخيه الإنسان. وقد تمتد مأساة الممعن في غربته فيصطدم بأمثاله من المثقّفين الذين قرروا السباحة مع التيار فيصبح غريباً مغترباً يقاسي الأمرّين.

هذه الصورة القاتمة للمعاناة المركبة تمّحي بين حين وآخر وتخلي مكانها لقليل من الفرح وكثير من الألق حين يغدو المثقف مسؤولاً، والمسؤول مثقفاً.. حينذاك يستعيد العلم مكانته وتبدأ بوادر ارتفاع شأن الوطن الذي يعلي من شأن مواطنيه ويحرص أفراده على إشاعة الكرامة بينهم، فيغدو العلم والكرامة صنوين لايفترقان.

لقد شهد بلاط سيف الدولة تكريماً للعلماء والأدباء والفنانين حتى غدت حلب محجّاً لمثقّفي العالم، فارتفع اسم سيف الدولة عالياً وازدهر العلم والأدب والفن بما لقيه أصحابه من تكريم.

تلك الصورة التراثية تخفّف أحزان أصحاب الكلمة، كما يُعاد إليهم الأمل أن العالم مايزال بخير حين تتكرر اللقاءات وتثمر بين المثقف والسياسي.

ومن تلك اللقاءات المجدية مانلمسه بين حين وآخر في بيروت، التي بقيت فترة طويلة عاصمة للثقافة العربية، وما تزال – بعد معاناتها – تحاول استرداد دور الريادة الثقافية بما يتوافر فيها من حرّيات نسبية، وبالحوارات المتواصلة بين المثقّف والسياسي.

واللقاء يغدو مثمراً كلما بدت حميميته وصراحته وبساطته، وذلك لايكون إلاّ بعد أن يقتنع الجميع بأهميّة التعاون من أجل رفعة الوطن ورفعة الإنسان فيه.

وفي ظنّي أن مفكّرينا المغتربين ماكانوا ليغادروا الوطن لو أنهم وجدوا السرب في مساره الصحيح، بل كانوا سيناضلون من أجل أن ينضمّوا إليه فرحين.

وإذا كان القرن الماضي قد شهد معاناة أجدادنا المثقفين، نرجو أن نكون جسراً يخفّف الوطء عن أبنائنا كي يعيشوا في رَغَد آمنين.

تحيّة للمسنّين في عيدهم

الأول من تشرين الأول يستقبل اليوم العالمي للاحتفال بالمسنين. ولأنّ خطر الشيخوخة بدأ يداهمني، رحت أحدّق في وجوه النّاس بتمعن ومحبّة. في أيِّ شارع مزدحم قلما نعثر على كهل يبتسم، فإذا حاولنا الدخول إلى عالمه، نجد أنّه واحد من القلائل الذين أتيح لهم استخدام إمكاناتهم بدرجة معقولة، وغالباً يكون من العلماء. أمّا أصحاب المهن الأخرى، وبخاصّة الذين يحترفون مهنة تتطلّب فنّاً، كالأدب والرسم والموسيقى، فإنّنا نادراً مانجدهم يبتسمون. وما ذاك إلا لأنّهم مرهفو الشعور إلى درجة المرض، ممّا يجعلهم يتأزّمون من أقل صدمة يواجهونها في الواقع، فنراهم يفكّرون بوطأة الزّمان.

إنّهم يعيشون لحظة الصدمة التي تفتح جراحهم على ماضٍ طويل، عانوا فيه من خيبات متتالية، تستدعي إلى الذّاكرة تاريخاً طويلاً من الآلام، ومن الصراع العنيف مع الحياة، عبر زمان يبدو مُغرِقاً في القِدَم، للإنسان الحزين.

فإذا كان الكهل متفائلاً، يحاول الهروب من ماضيه المخيف، فيصفعه مستقبل يبدو ذا مساحة ضئيلة، وبالتّالي يوشك صاحبه أن يقتنع بانعدام الإمكانات التي يمكن أن تعيد التوازن إلى من أنهكته الحياة.

وتزداد المرارة لدى من يعتقد بأنّ انحلال الجسد نهاية المطاف، ولا جدوى من تحمّل أمراض الشيخوخة، فيتعمّق إحساسه بعبثيّة الحياة، مما قد يدفعه إلى الانتحار تحت وطأة ثقل الزّمان – الذي يبدو، مع الألم، بغير حدود (Unlimited) فيعمد إلى قتله بالطريقة الوحيدة الممكنة: الانتحار... ذلك الفعل الذي يُعدم الزّمان الذّاتي في صاحبه.

وإذا كان الموت موضوع قلق أساسي لدى من يفكّر بالانتحار، وقاوم الفكرة، فإنّه يزجّ بنفسه في حالة جحيميّة لاتنتهي، لأنّه يجزع من الموت الّذي يراه شيئاً يَحيل (الذّات) إلى (عدم). أمّا المؤمن الذي يعتقد بالبعث أو بخلود الروح أو بالتقمّص، فإنّه يتفاءل بالمستقبل، عن طريق الموت الذي يعدّه الجسر إلى الأبديّة، به يعبر أدرانه إلى عالم ترفرف الرّوح فيه من غير ألم. وهناك يكتسب استمراراً آخر عبر زمان لاينتهي، أو عبر زمان يكتسب تجدّده باستمرار.

وهذا هو الفرق الجوهري بين المؤمن بالبعث والملحد، كلٌّ منهما يعلم أنّه طارئ على الحياة، ولكنّ الثّاني يعتقد بأنّ روحه تفنى بفناء الجسد، والأوّل يثق بقدرته على التحلّي بالفضيلة استعداداً للتخلّص من أعباء الجسد، لينتقل من زمن تؤطّره الأيّام والسنون، إلى زمن مطلق لانهاية له... أي إلى زمن يفتقر إلى زمانيّته الدنيويّة بعد أن أُتيح له الدخول في عالم الأبدية. في انتظار ذلك، يحاول الإنسان تطوير مستوى حياته عبر الزّمان. ولكن، هل يستطيع المسنّون ذلك من غير معونة من الذين تربوا على أيديهم ونهلوا من معارفهم وأخذوا الكثير من أوقاتهم؟ إنّ للكِبَر طغياناً يأخذ بألباب البشر وبأجسامهم التي لم تعد تقوى على المجابهة إلا إذا لقيت من الشباب عوناً وسنداً ورأفةً يفترضها العطف السابق الذي لقيه الأخلاف من

الأسلاف، تعبيراً عن الامتنان نحو ماكان. وإذا كانت أخلاقنا العربيّة والإسلاميّة مازالت عوناً لنا في الحفاظ على الروابط الأسرويّة، حيث يداوم الصغير على احترام الكبير، ينبغي لنا أيضاً ألا ننسى من حرموا من نعمة الخِلفة، وليس لهم من مؤنس سوى أناس نهلوا من معينهم يوماً، وجاء أوان ردِّ الجميل بالإحسان، وبالبرهنة عملياً على أهمية الترابط الإنساني وجدواه:

من يفعل الخير لا يعدم جوازِيَهُ   لا يذهب العرف بين الله والنّاس

وإذا كنت أجلّ والديّ، وكثيراً من أصدقائي الكبار سناً وقدراً، يطيب لي أن أباركهم في عيدهم، وأعبّر لهم عن حبّي وعظيم امتناني لكلّ سنّةٍ حسنة استنّها المسنون، راجياً أن أبقى قادراً على البرِ بهم. فطوبى لكلّ الأشجار الباسقة التي علمتنا فضائل السنبلة، وطوبى للذين يخصصون بضعاً من لهاثهم خدمة للمسنين من حولهم... وطوبى للذين يعتبرون.

اغتنموني ... قبل الرحيل

بعد حصوله على جائزة بريخت، بدأت الأنظار تتوجّه إليه ... يتلقى الدعوات للمشاركة بالمؤتمرات، وترجوه المؤسسات الثقافية المختلفة أن يقبل مهمة التحكيم في مسابقاتها.

المحطات الفضائية العربية غدت تتسابق كي تحظى بلقاء معه مقابل مبالغ ضخمة جداً .

خلال العام الماضي كُرّم ست مرات من جهات مختلفة، ومنحته الدولة جائزتها التقديرية.. وأعلى وسام في الدولة..

في تكريمه الأخير قبّل وزير الثقافة يده، الأمر الذي جعله ينسحب من التكريم، ينزوي في زاوية الفندق الكبير .. ويبكي.

كافح طوال تسعين عاماً، وعانى الفقر وغلبة الديون..

كثيراً ماأوى إلى فراشه جائعاً وهو يحلم بشراء كتاب جديد يلزمه من أجل إكمال تأليف كتابه الثالث والعشرين.

بعد وساطات متعدّدة وإلحاح متواصل حصل على عمل مؤقت في إحدى دوائر الدولة براتب ثانوية عامة، لم تكن هناك اعتمادات مالية من أجل الشهادات العالية، فقبل التسوّل من مال الحكومة وفضّله على التسوّل من موائد الآخرين.

كان يوفّر الليرة تلو الليرة ويقتطع من لقمته كي يجمع مايمكّنه من إصدار كتاب.

كلما أصدر كتاباً يراه مهماً وفتحاً جديداً في بابه، توقّع أن يحظى بالضوء فيلتفت الإعلام إليه، ليلفت نظر الحكومة كي تمنحه مكافأة على أحد كتبه أو تطبع له كتاباً على حسابها، فيفي بذلك الديون المتراكمة عليه.

لكنّ أحلامه كانت في كل مرة تضيع أدراج الرياح، والناس لاهون عنه، الحكومة منشغلة بما تنشغل به الحكومات عادة.

الآن.. بعد أن بلغ التسعين، لفتت النظر إلى أهميته مؤسسة أجنبية فبدأت تنهال عليه الشهرة والمال، وصار لقاؤه سبيلاً لشهرة الصحفي الذي يلتقي به.

كان في كامل قوّته مهملاً، ولم تكلّف أي جهة نفسها مجرد الإشارة إلى أهميته.

الآن.. من دولة إلى دولة يُحمل على (النقّالة) كي يتحدث في المؤتمرات، ويستعين ببعض تلاميذه كي يقرؤوا له المواد المقدمة للمسابقات كي تكون له الكلمة الفيصل فيها ...

الآن .. حين لم يعد قادراً على هضم العنب، تمتد له الموائد الفاخرة .. تُعزف من أجله الألحان.. وتُقام الحفلات...

ولكنّ الرقص أمسى مستحيلاً..

كان يقبّل أيدي صغار الموظفين كي لايرهقوه في بيروقراطية معاملات الحكومة البسيطة التي كان يضطر لإجرائها حين يريد طباعة كتاب، أو نشر مقال في صحيفة.

الآن.. صار الوزراء يقبّلون يديه بعد أن غدا غير قادر على لمس حنان الوطن بيديه، لأنّ النعومة تبلّدت في أتون الألم المتواصل الذي كان يعانيه طوال تسعين عاماً..

في زاوية الغرفة يبكي.. ويعزّي نفسه قائلاً: لئن تصل متأخراً خير من أن لاتصل أبداً.

وقف نشيطاً بسنيه المتراكمة.. مسح عينيه من الدموع .. عقد العزم.. سيخرج الآن إلى الحشد الكبير الذي ينتظره، وسيصرخ في وجوههم باسم القامات الكبيرة الجدد الذين يمنحون الوطن عزّه وتراثه المجيد، باسمهم سيقول: اغتنموني قبل الرحيل.. أيها المؤتمنون على صروح الوطن.

في البدء .. كانت المدرسة

المشكلة الأساسية التي تواجه معظم المثقفين العرب اليوم هي أنهم ينتهجون الطريق الخاطئة بغية الإصلاح مما يؤدي بهم إلى الدوران في حلقة مفرغة. الصراع السياسي وحده لايمكن أن يصل بأي أمة إلى شاطئ الأمان لتنعم بمكتسبات البشرية وإنما تستمر الإدانات المتبادلة بين الحكومة ومعارضيها، ويدَّعي كل منهما أنه يفهم الديمقراطية أكثر من سواه، متناسين أن الديمقراطية عادات يبدأ غرسها منذ الطفولة وعلى مقاعد الدراسة لتصبح شائعة في المجتمع ليحل التفكير الحر محل أساليب التدجين المختلفة.

إن الطفل الذي نشأ على الزجر والتعنيف لايمكن أن يلام في كبره إذا غدا الاستبداد ديدنه وشريعته التي تتيح المجال كي يطيح القوي بالضعيف ويتعالى الغني على الفقير.

في المدرسة ينمو الحب والتآخي والإيثار والتعاون وحب الوطن واحترام الكبير والعطف على الضعيف إذا قيَّض الله للتلاميذ معلّمين يحترمون مهنة التعليم.

وفيها أيضاً يمكن أن يستفحل الفساد إذا أُهملت التربية وانقلب التعليم إلى تعليب من خلال معلّمين يتّصفون باللامبالاة.

المدرسة ليست مصنعاً آلياً مهمّته استنساخ تلاميذ متشابهين، وحتى في إطلاق قدراتها القصوى لإنتاج تفوّق جماعي لاتكون قد ساهمت في بناء المجتمع..

إنما يكون المجتمع سليماً عندما تنفتح أمام التلاميذ آفاق قصيّة لاكتشاف القدرات الذاتية وتنميتها.

ليس صعباً وضع مناهج ضخمة تثقل كاهل التلاميذ والطلاب على حد سواء، وليس مستحيلاً على التلاميذ والطلاب قبول هذا التحدي والانطلاق لطبع المناهج في خلايا الذاكرة.

ولكنّ العمل الجاد يتطلّب غير ذلك كله، يتطلب مناهج مركّزة تتضح فيها الأساسيات وتساعد المتعلمين على التفكير المستمر، فالذاكرة ليست كل شيء وإنما هناك ملكات مختلفة لابد من مراعاتها لتزهر أعمالاً إبداعية جديدة.

وأهم من ذلك كله أن يكون هناك توافق بين البيت والمدرسة بحيث لاتبدو القيم متناقضة.

وكي لانترك أنفسنا تجذّف في العموميات، سننطلق إلى سؤال أساسي حول إحدى القيم التي تفرز دلالات متعددة.

كم عدد الآباء والأمهات الذين يركّزون على تربية أبنائهم وتعليمهم وينصحون لهم أن يتلقّوا العلم بصرف النظر عن مسألة العلامات؟ بل كم عدد المعلّمين في الدورات الخاصة الذين يحرصون على استيعاب تلاميذهم وطلابهم العلم بعيداً عن / سلّم العلامات /؟

وتصوّروا بعد ذلك مدى سلامة المجتمع في بيئة تشجّع على قياس العلم بالعلامات وتلقّن أساليب الغش في الامتحانات وتساعد عليه؟

كيف يمكن لمجتمع كهذا أن يغدو معافى؟ وكيف يقتنع الطفل بقيم الخير والعطاء في حياته العملية بعد أن يكون قد تدرّب طويلاً على تلك الموازين التي تقيس العلم بالعلامات / = المال / ألن يكون من حقه بعد ذلك أن يحسب فوائد كل حركة يقوم بها ابتداءً من إفشاء السلام وانتهاءً بالمهنة التي يختص بها ؟!..

الغاية من المدرسة تعليم الأطفال بعض المبادئ الأساسية لأساليب تلقي العلم وربطه، من ثم، بالعمل.

ولن تكون مدارسنا بخير إلاّ بعد أن يشرح لنا طلاب الشهادة الثانوية إحدى المواد التي درسوها وأن يجيبوا على أسئلتنا بحب وبرغبة في أن نفهم جيداً الدرس الذي يشرحونه لنا.

أعطني طلاباً كهؤلاء أعطك مجتمعاً معافى يبشر الأمة بمستقبل زاهر، وحذار من أن تقول: **هيهات**.

عندما يغيب الأب

الأب عماد الأسرة، به تُصان أو تُهان، والأبوّة نعمة ينبغي مداراتها والحرص على شرف حيازتها، وهي لاتتم إلاّ بالولد، ولا يوجد الأطفال إلاّ بوجودها. فهناك لزوم متبادل بين الوالد والولد، كلّ منهما يساهم في استمرار الصفة لدى الآخر، وقد يجرّد أحدهما الآخر من تلك الصفة حين يسيء إليه.

الأب الذي يتمرّد ابنه عليه ويتنمّر، يشعر أنه رجل بلا ولد؛ والابن الذي يتجاهله والده وينشغل عنه، يشعر باليتم.

وللحفاظ على تلك العلاقة في جسد الأسرة، لابدّ من وجود توازن يتسنّم فيه الأب دور القائد، ويرضى الابن بقرار أبيه حتى لو ظن أنه مغبون فيه.

ونحن لاندعو هنا إلى الرضوخ والإذعان والعبودية وإلى إلغاء العقل والمناقشة، بل لابد من الحوار المتبادل بين الأب وابنه، فإذا فشل أحدهما في إقناع الآخر، يُرجّح رأي الأب وتُتّبع نصائحه برضى ليس فيه امتعاض.

والغالب الأعم الذي نراه اليوم هو غياب دور الأب أو تغييبه من خلال أم متسلطة أو ابن متمرد أرعن، بحجة أن العصر يتطلّب استقلالاً عن الأسرة، وحريّة في الرأي، واختياراً للأفعال التي نرغب بالقيام بها بوصفنا كيانات متفرّدة.

وما ذاك إلاّ ردّة فعل عرجاء على صورة الأب في القرن الماضي، ومحاولة تقليد تكوين العائلة في الغرب.

وإذا كانت صورة السلطة الأبوية السابقة مرتبطة بالقمع، فهذا لايعني الانجراف وراء النظريات الغربية التي تدعو إلى التعايش السلمي بين أفراد الأسرة وإلى تبادل المصالح الآنية، وقبول الاختلاف في الرأي والفعل باستكانة مزرية. حتى إذا شب الطفل عن الطوق وبلغ سن الرشد انفصل عن أبويه تماماً وأمسى مستقلاً في شؤونه ليشعر أبواه بانزياح عبء عنهما، وتصبح الأم مستقلة إذ تنتهي من الإنجاب وأعباء الرعاية الأولية فتلتفت للاهتمام بكلها، وحين يبلغ الأبوان سنّ الشيخوخة وتداهمهما أمراضها يستسلمان إلى أقرب ملجأ لرعاية المسنّين.

هذه الحالة أدّى إليها عصيان أجوف على صورة معاصرة للأب تكوّنت عبر تاريخ نضالي مفتعل للحد من سلطة الأب بغية الحصول على حرية وهمية في عصر الاستبداد المقنّع / بتشديد النون /.

وهي صورة تختلف جذرياً عمّا نعرفه – نحن العرب المسلمين – عن الأب الذي يتكوّن اسمه من أول حرفين من حروف اللغة العربية / هجائياً وأبجدياً معاً / والذي نعترف بدوره الكبير في تنظيم الأسرة إذا استمرّ الالتزام بقيادته.

فلا بد أن يكون للأب الدور القيادي والكلمة الحاسمة في نهاية المطاف في كل شأن من شؤون العائلة.

وإذا كنّا ندرك جميعاً أن كلّ تجمع يحتاج إلى قائد ينظّم أمر ائتلافه، فمَن ياتُرى أحقّ بذلك الدور من الأب في الأسرة ؟!...

ألا فليعد الأب إلى دوره الحاسم وليسانده الآخرون في إنجاح هذا الدور لمصلحة الأسرة ومصلحة كل فرد فيها، وبهذا وحده يتمكّن الآخرون من القيام بأدوارهم بشكل صحيح في جسم الأسرة التي تشكّل الخليّة الأولى في المجتمع الذي لايصلح إلاّ بصلاحها.

إذا كان رب البيت ...

لو أننا طلبنا من مجموعة أطفال رسم صورة الأب، لجاءت رسوماتهم تطابق الواقع المهني لوالد كلّ منهم.. وهنا يبدو الاختلاف، أما المشترك الجوهري للآباء في الرسوم فإنّه يتّضح في شيء يحمله الأب في يده، وفي وجهه الذي يعلوه التجهّم. هذه الصورة المعاصرة للأب تكوّنت عبر تاريخ نضالي مفتعل للحد من سلطة الأب بغية الحصول على حرية وهمية في عصر كثرت فيه أساليب الاستبداد وتنوعت أسباب القهر.

وقد تهاون الآباء مع أبنائهم بغية تخفيف أعباء الحياة عليهم بعد أن عييت حيل الأب في إدخال البهجة إلى نفوس أبنائه نظراً لضيق ذات اليد وتسارع العصر الذي فرض قيماً جديدة مصفّحة بزيف خفي.

تهاون الأب لدرجة جعلت من الممكن أن ترسم الطفلة صورة الأب وهو جالس يشاركها ألعابها، وفي المقابل، نجد صورة الأب في القرن الماضي ترتسم بملامح صارمة وهو جالس بوقار ومن حوله أفراد الأسرة يخطبون ودّه ويرجون رضاءه.

الأب غدا مرهقاً لاحول له ولا قوة تجاه مايجري داخل الأسرة أو خارجها، في الخارج قوى متعدّدة تتحكّم به، وفي البيت تأخذ الزوجة دور القائد، ويشب الأطفال محاولين إثبات كينوناتهم فيطالبون بحريات لامحدودة ظانّين أنهم أدرى بمصالحهم وصالحهم فتعمّ الفوضى ويضطر الأب للاستسلام.

وبعد سنوات، إذا مافشل الأبناء في رسم معالم حياة علمية وعملية ناجحة يعودون باللائمة على الأب. وحتى الزوجة تشارك أبناءها في تحميل الأب مسؤولية ماهم فيه.

ودرءاً لمغبّة المساءلة والندم بعد فوات الأوان، لابد أن تستعيد الأسرة كيانها لتقوم بدورها في إصلاح جسد المجتمع لتظهر روح التمرد على الجمود والتخلف. ولا بد للقيام بهذا الدور من قائد يتسنم زمام الأمور متمثلاً بالأب (أو الأم في حال انشغال الأب أو تقصيره أو غيابه).

إن لكل فرد في الأسرة دوراً لابد أن يؤدّيه من غير تذمّر، حتى لو كانت المهام المنوطة به صعبة ومعقّدة، حفاظاً على كيان الأسرة ونجاح أفرادها في التساند للترقّي.

الأب يظلم أبناءه حين يميّز بينهم – عملياً – فيترجم تحيّز الحب من خلال تفضيل بعضهم على بعض، ويظلم حين يسلّم الدور القيادي للأم التي سرعان مايفلت منها الزمان وتتحوّل الأسرة إلى كيان متفكّك يتلاطم بين الأمواج وتجذبه الرياح إلى حيث تشاء.

إذا كان ربّ البيت بالطبل ضارباً   فشيمة أهل البيت كلّهم الرقصُ

والأبناء يظلمون آباءهم حين يتوهّمون أن الأب يطلب منهم فوق طاقاتهم أو أنه يطالبهم بما يخدمه على الصعيد الشخصي، هذا في حين لايبتغي الأب سوى تربية أبنائه ليصبحوا قادرين على مواجهة صعاب الحياة والتغلّب على مشكلاتها.

علاقة الآباء بالأبناء ليست تصادمية ولا يمكن أن تكون. ولكنّ سنة الحياة تقتضي الامتثال للحديث الشريف: إذا كنتم ثلاثة ، أمّروا أحدكم، لتستقيم الحياة.

أزمات الشباب بين الواقع والطموح
– ملاحظات أوليّة –

إن أزمة الشباب تختلف شكلاً ومضموناً وعمقاً بحسب المجتمع الذي ينشأ الشاب فيه، ويعكس، بالتالي، في أزمته الظروف الاجتماعية التي ينشأ فيها.

هناك تغيّرات تحدث داخل الشاب، تؤثّر، لكن الأثر الكبير إنّما مردّه إلى طريقة تعامل المجتمع مع الظروف التي أدّت إلى تحوّل الأشبال إلى مرحلة الشباب. غالباً مايكون التغيّر الفيزيولوجي غامضاً، حيث لم يعد الشاب يعامَل معاملة الطفل، وبالوقت نفسه لايُسمح له بإبداء الرأي وبالمشاركة في أعمال الكبار، فيشعر الشاب بالاغتراب لأنّه لايعرف من هو بعد أن أُخرج من مرحلة الطفولة وأساليب التعامل معها، في حين لايُعامل معاملة الراشدين فيشعر بأنّه هامشي غير مرغوب به.

إن حاجات الشاب تتوزّع على الشكل الآتي :

١- حاجات فيزيولوجية : تتكون من دوافع متنوعة تحتاج إلى إشباعها.

٢- حاجات نفسية : تتطلّب فهم الذات وتقبّلها وفهم الآخرين لها بمنح الشاب استقلالاً نسبياً لاتّخاذ القرارات الهامة التي يكون لها دور رئيس في تقرير مصيره، وفي تشكيل سيرة حياته.

٣- حاجات اجتماعية: تتركّز في قبوله بمجتمع الراشدين، ومنحه الحب، ومنحه فرصةً لتأكيد الذات من خلال عمل مهم يقوم به للمجتمع.

لكن الإحباطات التي يعانيها على الصُعُد المختلفة، تؤثّر في توجّهاته، وفي طريقة تعامله مع العالم الخارجي الذي يبدو عدائيّاً في كثير من الأحيان.

إن الوضع المربك للشاب العربي تشكّل من وضع العرب غير المرضي لطموحه، فلا هو ينتمي إلى دولة قوية تستطيع مجابهة التحديات العالمية، ولا هو يأخذ فرصته في السعي إلى تحقيق ذلك.

هذا فضلاً عن ملاحظته وجود فئات اجتماعية متفاوتة ومتناحرة في مجتمع استهلاكي يعاني من بيروقراطية تعيق حركة الشباب هذا في حين أنهم يلاحظون تقدّم العالم علمياً بشكل كبير، في حين أنهم ورثوا حيرتنا بين التراث والغرب.

ومن الجلي أن المثقفين العرب، أو مايمكن تسميته مجتمع الكبار، مازالوا متوزّعين بين الانكفاء إلى التراث مع رفض كامل للغرب ومنجزاته وقيمه وأفكاره، وبين الافتتان بالغرب الذي استطاع تحقيق إنجازات واسعة في شتى الميادين. أما الموقف الثالث فهو مجرد محاولات توفيقية بين التراث والغرب، أو بين التراث الذي يرمز إلى الأصالة، والغرب الذي يرمز إلى المعاصرة.

وبين الأصالة والمعاصرة يقف العرب بقدرات فرديّة ضعيفة تحاول إمساك العصا من الوسط . ولا يقتصر الأمر على ذلك، لأنّ الغرب غربان، اشتراكي ورأسمالي، نلاحظ التفاوت بينهما وننحاز إلى أحدهما، ومع ذلك تبقى بيننا فروق شاسعة تعمّقها القيم المختلفة التي لايمكن تجاهلها عبر العصور.

إن السرعة المتزايدة في التقدّم التكنولوجي المستجلَب من الخارج يربك شبابنا، لأننا لم نستعد كفاية للتكيّف مع هذا التقدّم في منظومة قيم مناسبة، كما أننا نكتفي باستيراد منجزات العلم الحديث من غير أن نتمكّن من امتلاك مفاتيح أسراره.

وهذا يتركنا عرضة للاستلاب والتبعية الدائمة لمن يمتلك – في أي وقت – إرسال فيروس يشلّ كل التقنيات التي ننعم بها (بفضل) مايقدّمه الغرب من (فتات) لنا، خاصة من المصانع أو الأسلحة التي ترغب الدول المتقدّمة في التخلّص منها.

هذا في حين أننا نطالب الشباب بالتعلّم موضّحين أهمية العلم وضرورته، ثم نسد بوجوههم الطرق إليه.

نطالبهم بالحصول على معدّلات عالية خلال سنة واحدة (تاسع) (ثانوية عامة) من خلال امتحانات إرهابية تجعل المعلم والتلميذ خصمان لامتعاونان لإنجاز المهمة التعليمية. نمنع التعليم الخاص والدورات.. في حين يتّجه العالم إلى التعليم عبر الإنترنت والجامعة المفتوحة وحرية اختيار الكليّة ...

إن اختيار الكليّة للشاب لايعني أننا نجعله بارعاً في مجال ما .. يبقى اختياره.. وله أن يبحث عن مهنة مناسبة واختصاص مناسب. إن انشتاين الذي كان كسولاً في دروس الحساب برع في الرياضيات... ولو أننا أطّرناه تَبَعاً لدراسته لما استطعنا معرفة شيء عن النسبية..

قد تكون لدى التلميذ ملكة في الرسم، لكنّ منعه من دخول كلية الفنون سيؤخّره كثيراً.. وقد ينخرط في مهنة أخرى ويصبح عادياً. ولا يستطيع كل الشباب التخلّص من دراسة الأصبغة النسيجية ليبدعوا في الشعر كما فعل عمر أبو ريشة مثلاً. علينا أن نفتح الفرص أمام الشباب لاأن نقسرهم على مانريده نحن.

إن معظم المواد الدراسية لاتعبّر عن اهتمامات الشباب ولا تجيب عن الأسئلة الملحّة التي يفكّرون بها، ولا تتيح لهم فرصة لفهم الواقع.

بل تقدّم إليهم المعلومات وكأنّها شيء صحيح ونهائي ولا نقاش فيه.. وهم ملزمون بطباعته في الذاكرة للحصول على أكبر قدر من العلامات، ثم يلقون به خارج أدراج الذاكرة بعد ذلك، لأنهم تدربّوا على أن مهمّة الحفظ تنتهي بالحصول على نتائج الامتحانات..

كما أن اختبار الذاكرة لايجدي في عصر نحتاج فيه إلى ملكات العقل الأخرى لنصل إلى مرحلة الابتكار... وامتلاك القدرة على إيجاد الحلول لمشكلاتنا...

تتعامل المدرسة مع الشاب بوصفه (مجموعاً) أو رقماً حسابياً لاغير، ولا يشعر الشاب أنه متميّز فيها ..

وبعد أن ينجز الشباب مهمّة الحصول على العلامات، ويتوزّعون في الفروع الجامعية والمعاهد التي رُسمت لهم، ويتخرّجون فيها، يجد كثير منهم أنفسهم عاطلين عن العمل.

وإذا وجد فإن العمل الذي يُتاح لهم لايناسب استعداداتهم وخبراتهم وميولهم، بل كثيراً مايتعارض معهم.

ويصبح العمل – حينذاك – نوعاً من التعذيب . ويقابل الشاب العمل – تدريجياً – باللامبالاة.

وهكذا فإننا ننتج حرفيين بلا وعي أو شعور بالمسؤولية، وغير قادرين على ربط النظرية بالعمل أو بالواقع العملي.

وهم – أيضاً – يعانون من فقدان الثقافة التي يحتاجونها في مراحل تغيّراتهم العمريّة.

فلا تُقدّم لهم ثقافة جنسية، وهم بأمس الحاجة إليها، فيتبادلون المعلومات الخاطئة سرّاً، وسط شعور بأنّ مجتمع الكبار لايبالون بمشكلاتهم ولا يعيرونها أي انتباه.

وبدلاً من ذلك يُرهَق الشباب بمواد، يعرف المدرّسون والتلاميذ بأنها حُشرت في المناهج من دون أدنى فائدة، في حين وُضعت برامج لأنشطة فنيّة وثقافية ورياضية من غير أن يُعنى أحد بها، لأنها لاتدخل في المجموع العام المطلوب للشهادات، والشهادات التي تتطلّب مجاميع عالية تخلو من هذه المواد، فلِمَ يضيّع الأساتذة والتلاميذ أوقاتهم بها ؟!...

إن أزمات مجتمعنا العربي هو السبب الرئيسي في تفريخ أزمات الشباب، حيث لم يعد للتعليم جدوى في نظر الشباب وإنما الشهادة هي الشيء المطلوب، وهذا يؤدّي إلى تهاوي أحلام الشباب في العمل المنتج المحبّب، ويتهاوى الحلم في وجود أمة عربية موحّدة في ظل تقسيمات طال أمدها من دون أي تغيير أو تقدّم.

لقد حلم الشباب طويلاً بسعة الرزق بعد التخرج.. وبتكوين أسرة آمنة.. ثم لاحظوا أن ذلك يتطلّب معجزة إلهيّة. نقول للشباب: نعمل من أجلكم.. أنتم المستقبل، وهم يرون أننا نستخدمهم أدوات لتنفيذ مايصبو إليه الكبار.

هذه هي بعض المشكلات التي يعانيها الشباب.

والواقع إنّ تغيّرات الشباب ليست أزمة لايمكن تفاديها، على الصعيد النفسي الذاتي للشاب، إذا تمكنّا من ضبط المحيط بشكل يتلاءم مع المتغيرات. وذلك بالابتعاد عن الضبط القسري الصارم، والتعامل بمرونة ومحبّة، وبشكل صريح وواضح، لايوجد فيه استثناءات أو تفريق بين الجنسين في الموانع والحدود المحرّمة.

وفي إزالة التعارض بين القيم المعلنة والسلوك الفعلي، وعدم التفريق بين الاختصاصات الدراسية بطريقة تُشعر بعض الشباب بالاستعلاء وبعضهم الآخر بالدونيّة.

لابد من احترام مختلف المهن، والمساواة في المعاملة، بصرف النظر عن الترتيب في العائلة. والنظر إلى قضايا الجنس والحياة والعمل على أنها موضوعات علمية تهم الصغار والكبار، وليست محرّمة على أحد، وإلغاء السريّة على بعض الحقائق الجنسية والبيولوجية التي يريد أن يعرفها الأطفال

والشباب، وتعليم الشباب الاعتماد على النفس بلا قسر أو تدليل. والشدة مطلوبة هنا في جعل الشاب يتحمّل تبعات اختياراته، من غير السعي إلى تقديم مايحتاجه على طبق من ذهب، ومن غير أن يشعروا بلامبالاة المجتمع الذي يزجّ بهم في معترك الحياة من غير أن يراعي أوضاعهم واختلافاتهم الفرديّة.

بل لابد أن نوضّح للشاب أنّه أصبح في مرحلة أخرى من حياته، تحتاج تدريبات مناسبة ومهارات خاصّة ...

وتبيين حقوق وواجبات المرحلة العمريّة الجديدة، وعدم السخرية والاستهزاء من التغيّرات التي تطرأ، كتغيّر نبرة الصوت وسواها من مظاهر التحوّل من الطفولة إلى الشباب.

إن أزمات الشباب هي مسؤولية مجتمع الكبار، بالدرجة الأولى، ولكنّ الحل لايكون بأن نرسم لهم مانريده نحن، بل بأن نقدّم لهم مفاتيح صحيحة لفهم العالم والتعامل معه، وبأن ندرّبهم على أسلوب التفكير الحرّ الذي يستطيع أن يستوعب المشكلات ويستنبط الحلول اللازمة لها.

وبغير ذلك لانستطيع وصف الشباب المشاغب أو المتمرّد بالانحلال، ولن يحقّ لنا اتّهامه بالفساد، لأنّه – بطريقة أو بأخرى – يحاول أن يفرّغ شحناته وطاقاته الهائلة بطرائقه الخاصة، مادمنا لانساعده نحن على ذلك ولا نتيح له الفرصة ليكون فاعلاً في مجتمعه.

إنّ التغريب والاغتراب والصراع النفسي، أمور نزجّ بها نحن في طريق الشباب حين لانمنحهم الفرصة للتعبير عن أنفسهم بوسائل مشروعة، فيها كثير من الحب، وقليل من الحزم اللازم للضبط الاجتماعي.

المرأة والمرآة
والقوى الخفية

في مسرحية (جلسة سرية) يصور سارتر المعاناة الواقعية للبشر. رجل وامرأتان يدخلون الجحيم ويُدهشون لعدم وجود نيران مُحرقة أو أدوات للتعذيب. ودفعاً للسأم يحكي كل منهم عن سبب وجوده في الجحيم فالرجل (جارسان) يدّعي بأنه رجل من دعاة السلام، أُطلقت عليه النار بسبب آرائه، أما (استيل) فتقول أنها تزوجت عجوزاً طمعاً بماله لتعيل أسرتها، ثم خانته مع رجل أحبّته. أما المرأة التي تعترف بأنها غير مهذّبة، فإنها تسخر من الحكايتين، فكيف يدخل صاحباهما جهنم إذا كان الرجل بطلاً والمرأة ضحية؟

لكنهما حين يرويان الحقيقة يتضح سبب وجودهما في الجحيم. يعيش الثلاثة في مؤامرات وكره لأنّ كلاً منهم يحب من لايحبه، وهكذا يكتشفون أن (الجحيم هو الآخرون) وأن كلاً منهم يحمّل أخطاء العالم لسواه. وبالطريقة نفسها نجد تعامل المرأة والرجل مع موضوع المرأة.

إن مانطرحه من أفكار مرآة لنا إن كنّا صادقين، ودليلاً على أمراضنا إن كنّا نعتقد بشيء ونقول مايخالفه، أو نقول مايخالف أفعالنا.

المرأة المثقفة دائمة الشكوى، والرجل المتحضّر دائم المطالبة بحقوقها ومساواتها به.

أما الحقيقة المغيّبة فهي أن المرأة – في غالب الأحوال – هي صاحبة القوى الخفية الفاعلة، وهي القوى الخفية القابعة وراء تحرّك الرجل.

هذا الذي يبدو في الواجهة ويتصدّر الجلسات ويحرّك ماحوله، كثيراً مايكون محكوماً بامرأة توجّهه بشتى الوسائل والسبل ليتحرك وفق ماتريده هي، غير عابئة باللوم الذي يواجهه أو بالثناء الذي يحصل عليه.

هل مانقوله يشكّل اتّهاماً لأحد الطرفين أو لكليهما؟ لاأظن ذلك مهمّاً، وإنما المهم هو كيف تجري الأمور، والأهم ألاّ يقف أحدهما ضد الآخر كي لانغرق في تبادل الاتّهامات وننسى أن الرجل والمرأة يعانيان معاً من وجود اجتماعي يفرض متناقضاته عليهما معاً.

إذا قال الرجل: إنني مع كل امرأة تأخذ مداها في بناء العالم وفق امكاناتها، وتفرض احترامها بحسب الطريقة التي تتعامل بها مع المحيط.

فهل كثيرات هنّ النّساء اللواتي يقلن للرجل:

كيف أنت؟ بخير؟ .. إنني بخير مادمت أنت كذلك أيضاً ؟!..

الأم رمز الأسرة..
وبها تستقيم

لعلّي أخالف مااعتدناه في مثل هذه المناسبة، فأستعيض عن تقديم هدية مادية – عينية للأم في يوم عيدها، بإهدائها نصحاً يطال الأبوين، وذلك لاعتبارات مختلفة :

١- لأنني لاأملك الحد الأدنى حتى لشراء قطعة متواضعة هذا العام.
٢- لاأريد الاكتفاء بتقديم وردة كي لاأقسر الأم على الابتسام في وجهي، وكي أجنّبها إبداء امتعاضها سرّاً من هذه الهدية (الفذّة).
٣- أريد أن تتساءل بعمق عن السر الذي يجعل الابن الموظف أو العاطل عن العمل غير قادر على شراء هدية، وغير قادر على الإفصاح عن معاناته التي يشكل الدَّين (بفتح الدال وتشديدها) جانباً منها.
٤- لاعتقادي أن يوم عيد الأم هو يوم عيد الأب أيضاً، بل هو عيد الأسرة، وخير مايُهدى إلى الأسرة عيوبها كي تغدو قادرة على تلافيها لتنعم بالحب والتضامن الذي يحلّ جزءاً كبيراً من مشكلاتنا.

أيتها الأم الغالية .. يامن تهز السرير بيمناها والعالم بيسراها، قد تقعين – بوصفك إنساناً – بهوى واحد من أطفالك فتسعين إلى تمييزه عن بقية اخوته وأَخواته، ولأنني أعلم أن الحب شيء فوق العقل وفوق الإرادة، ولا نملك القدرة على توجيهه أو تقنينه، لذلك لن أطالب بما ليس بالإمكان.

ولكن، أليس بوسعنا جميعاً أن نُظهر قدراً معقولاً من المساواة بين أبنائنا فنمنح كلاً منهم القدر الذي يحتاجه من الرعاية والحنان، تاركين الأمور المادية على الشكل الذي شرّعته الرسالة السماوية كي لانوقع أنفسنا في خطيئة إجراء المساواة على الشكل الذي نرتضيه ؟

أيتها الأم الغالية .. لاشيء يخفى والأبناء يتفاخرون ويتباهى كل منهم بحبك إياه أمام إخوته. والتمييز ينكشف ابتداءً من قطعة الجبن إلى الأدوات الشخصية وشكل الغرفة وأثاث منزل الزوجية إلى مايحدث في السجل العقاري والذي لابد أن ينكشف ولو بعد حين.

فمن نحن أيتها الأم.. أيها الأب.. كي نعمل على توزيع التركة على أبنائنا بالشكل الذي نرتئيه غير عابئين بعدالة السماء التي نشأت المحاكم الشرعية وشؤون التركات لأجل تحقيقها؟

أيتها الأم .. أيها الأب .. أيها الأخ الأكبر، لايفرّق الأُسَر ويقلب الاخوة إلى أعداء مثل ذلك التوزيع الجائر لثروة الأسرة ... ولا شيء يجمع مثل شعور أفراد الأسرة بأن كلاً منهم ينشد العدالة والمساواة والتآخي والتعاون في السرّاء والضرّاء.

إن مأأملكه ليس لي وحدي وإنما هو ملك للأسرة، ولا يحق لي التصرف به وفق هواي، لافي حياتي ولا بعد موتي. وما لنا سواكِ أيتها الأم لنعيد لمّ شمل الأسرة ونحافظ على تعاونها من خلال التمسك

ببديهيات ندركها ولكننا نخالفها انحيازاً منّا لطرف دون آخر، أو محاولة منا للحفاظ على تماسك الأسرة، أو بحجة حفظ كرامة أحد الأبوين بعد وفاة الآخر؛ وكلّ ذلك بعيد عن الحقيقة، وهي مما نصنع براء.

إنه مايدعم تماسكنا ضمن نظامنا الحالي وفي ظروف بيئتنا أن نتمسك بقواعد ثابتة لانحيد عنها مهما حاولنا الاجتهاد:

للزوجة مهر، وللأطفال الرعاية؛ في حياتنا .. ولهم مالهم بعد الوفاة. إن تسجيل الملكية باسم الزوجة أو باسم أحد الأبناء تعبيراً عن الحب والوفاء، لايعني العدل والإخلاص، بل يعني حرمان الآخرين من حقوقهم الشرعية.

أيتها الأم الغالية .. أيها الأب الغالي .. الأسرة هي الخلية الأولى في المجتمع، إن صلحت صلح المجتمع من حولنا، وإن فسدت غرقنا في تخلّف مابعده نهوض. فلننظر إلى أي الجانبين نريد أن ننتمي...

بوركت أيتها الأم في كل يوم
وكل يوم وأنتِ في عيد

الخيط الرفيع
بين نجاح الزواج وفشله

حين كنا نعدّ ملف (الزواج) طلبت إلى أحد الأدباء المشاركة فيه، وزوجته حاضرة. قال: عن أي جانب سنتحدث؟ قلت؟ تحدث عن تجربتك الزوجية. قالت زوجته: دع زواجنا بسلام وابدأ بالحديث الشريف: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج). قلت: ولكن الذين يقدرون على تكاليف الزواج والإنفاق قلائل في هذا الزمان، وبخاصة أن أهالي الفتيات يتجاهلون الحديث الشريف (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير). ويغالون في رفع المهور، ويبتدعون طرائق احتفالية مكلفة ماأنزل الله بها من سلطان. فقالت: لاتعد إلى مسألة تحديد المهر وتقنينه كي لاأذكّرك بما قالته المرأة لعمر بن الخطاب الذي تنبّه إلى أنه يحدّد مالم تبيّن الشريعة أكثره، وكانت لديه الشجاعة والجرأة فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر. بل إن الإسلام كرّم المرأة بالمهر ليجعلها مطلوبة، وحث الطالب على بذل مايستطيعه في سبيلها، لذلك جاء في الحديث الشريف: (التمس ولو خاتماً من حديد). قال زوجها: المرأة في العصر الحديث (تتمسكن حتى تتمكّن) فتبدأ بخاتم متواضع وهدايا رمزية وما إن تتم الخطبة حتى تبدأ وأهلها بعرض شروط تعجيزية من مسكن وملبس ومصاغ وتجهيزات يعجز حتى الموسرون عن تلبيتها مما يجعل الخاطب (يطفش) ويشيع هذه الحالة فيعزف الشباب عن الزواج. قالت: لاتنس أيضاً أن الفتاة وأهلها مطالبون أدبياً بتجهيز ثياب وأدوات زينة وبعض المستلزمات المتعارف عليها، مما يجعل الزواج مكلفاً للعروس أيضاً.

قال الزوج: دعا الرسول الكريم الجماعة إلى الائتمار بواحد منهم (إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم) والزواج الناجح هو الذي يكون فيه الرجل قائد الأسرة عملاً بقوله تعالى (الرجال قوّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض).

قالت الزوجة غاضبة: إذا استشهدت بآية كريمة يجب أن تتمَّها كي يكتمل المعنى، ولا تجتزئ على مبدأ (لاتقربوا الصلاة) التي يسكت عن إكمالها المغرضون فيمتنعون عن القول (لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) كذلك الشأن مع آية القوامة (الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فما قولك في بعض البيوت التي تقوم المرأة بالإنفاق عليها؟ وما قولك في بعض الرجال ضعاف العقول الذين يتكلون على زوجاتهم في إدارة المنزل وفي الإنفاق، فإذا تولّوا هم أفسدوا؟!..

قال صاحبنا محاولاً دفع الحرج عن نفسه: للزوج حقوق وواجبات، وللزوجة كذلك، وبالرغم من وجود حالات استثنائية، فإن الأفضلية للرجل، قال تعالى (ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف، وللرجال عليهنّ درجة)، حتى إن بعض النساء لايستقمن إلاّ بالزجر أو الضرب.

حاولت الزوجة السيطرة على أعصابها وهي تقول: ألم يأمر الله الأزواج بقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف).. ثم أذكّرك بالحديث الشريف (أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يُضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره).

قال الزوج: تعرفين موقفي من الرجال الذين يؤذون نسائهم، وإنما أوردت ذلك على سبيل المثال لشرح بعض الحالات المستعصية.

عندما شعرتُ أن الوطيس قد حمي قلت في نفسي لابدّ من المساهمة في تنشيط أوارها لأستفيد في إغناء (ملف الزواج) من خلال هذا الحوار الجاد، فقلت: ألم يثبت العلماء أن دماغ المرأة أقل وزناً من دماغ الرجل؟

تنشط الإثنان على الحوار وبدا أنهما عثرا على جانب جديد للمقارعة من غير أن يعيراني أي اهتمام. قالت: المرأة أسرع من الرجل في الإدراك العقلي، وهي تدرك المعنى بسرعة.

قال: لكنّ فهم الرجل لتفاصيل الموضوع أكثر دقة من فهم المرأة، وأكثر إدراكاً للأمور المجرّدة التي تخرج عن نطاق الحواس. والمرأة تنظر إلى الأمور من خلال علاقتها بها، لذلك لايمكن أن تكون منصفة في الحكم على شيء لها شأن فيه.

قالت: لكن ذاكرة المرأة أقوى من ذاكرة الرجل.

صمتت برهة ثم أردفت قائلة: قل لي، ماهو تاريخ زواجنا ؟

تجاهل السؤال والتفَّ عليه بسؤالها: سمِّ لي عشر مخترِعات في تاريخ العالم.. ألا تدلّ ندرة المخترعات على ضعف استدلال المرأة ؟..

قالت: والمجرمون أكثر من المجرمات في التاريخ. المرأة تتميز بالشفقة.

- بل لاتقوى على الأعمال الشاقّة، وهي ثرثارة.
- لذلك تستطيع الإفصاح عن مرادها ولا تغلّف حياتها بالأسرار.
- إنها أكثر اندفاعاً.
- عواطفها أقوى.
- هي عنيدة حتى يضطر الرجل إلى التسليم برأيها ويرتاح.
- إذا أردت أن ترتاح: طلقني.

عندما رأيت أن الأمور وصلت إلى هذا الحد، اضطررت للتدخل السريع، فهمست في أذنها: هو حديث عام فلا تأخذي مايقال على محمل شخصي خاص. وهمست له: عليك تهدئة الوضع ياصاحبي ولا تجعل ملف الزواج سبباً في الطلاق.. ركّز على الجوانب الإيجابية تسلم. ثم رفعت صوتي بسؤال مزدوج: هل تستغنين عنه؟ قالت: لأ ...

من أين تستمد وحيك وإلهامك فيما تكتب ياأديبنا العزيز؟

قال: من زوجتي الغالية. لقد كنت أمزح لأنني أحب أن أراها غاضبة أحياناً. ولكنني أعلم أن المرأة ظُلمت عبر التاريخ.. والتاريخ دائماً يكتبه الرجال وفق تصوّراتهم.

بعد أن انتهى الخصام، أدركت الخيط الرفيع الذي يفصل بين فشل الزواج ونجاحه، إنها الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، وأن يداري الشريك شريكه ويسانده بما يسهم في تحسين وضع الأسرة وفي إيجاد بيئة معافاة لتربية الأطفال وتنشئتهم، بدلاً من افتعال الخصام، أو السماح للظروف المعيشية الصعبة بالانعكاس سلباً على العلاقة داخل الأسرة.

توجّهت إلى الزوجين مرة أخرى بالسؤال: والآن حدّثاني بما ينفع ملف الزواج.

قالت الزوجة: انصرف عنا أنت وملفك.. كدت توجج الخصام بيننا بدون سبب. خذ هذه الحكاية من التراث وانصرف. أمسكت يد زوجها وهي تقول: أورد ابن عبد ربه في (العقد الفريد) قصة عن أم إياس التي خلت أمها بها بعد زواجها وقالت لها: أي بنيّة، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً يكنّ لك ذخراً:

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالطاعة وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقّد لوقت منامه وطعامه فإنّ تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله والادعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً ولا تفشين له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره.

ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مغتمّاً، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً.

حين أنهت قصّتها، قلت: علمت مَن هذه، إنها أم الحرث بن عمرو جد الشاعر امرئ القيس، ومن الفطنة أن تستعيني بالتراث.

التفت إليها زوجها الأديب وقال: يعجبني ذكاؤك، لذلك اخترتك زوجة لي من بين نساء العالمين. صمت برهة ثم قال: هذا طبعاً بعد إعجابي بجمالك ورقّتك ولطف معاشرتك. قالت وهما يغادراني متماسكَين: لهذا قبلت بك زوجاً ... لأنك ... (مزوق).

فضائل العلم وأخلاق العلماء

لاينكر عاقل فضل العلم والعلماء على تقدّم الحياة البشرية في الكون.

ولكنّ الاعتراف بالفضل وحده لايكفي، مالم تتبعه خطوات عملية تدعو إلى العلم وتدعم العلماء ليتمكّنوا من الاستمرار في تحسين ظروف الإنسان في العالم. وإذا كان العلم ضرورياً فإن أخلاق العلماء لايمكن فصلها عن علمهم. ويبدو ذلك واضحاً من خلال الأهداف التي يسعون إليها من وراء علمهم.

بالعلم انتقل الإنسان من العصور الحجرية إلى ماتلاها وصولاً إلى عصر المعلوماتية، ولم تنقطع الصلة يوماً بين العلم والأخلاق حين نريد أن نحكم على نتائج اختراع أو اكتشاف ومدى فائدته لدفع الإنسان نحو تعميق إنسانيته.

العلماء يخترعون والساسة يوجّهون العلم ويتحكّمون في أساليب استخدامه، مرة بترغيب العلماء وحثهم على الإنجاز، ومراراً بترهيبهم كما كان الحال مع العلماء الذين عاصروا هتلر.

وفي الأحوال كلها، يعترف الناس جميعاً – صراحة أو ضمناً – بفضل العلماء وأهميتهم { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون }.

ويُروى عن النبي حديث طريف له مغزى عميق في حياة البشر: (من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما عليه بالعلم).

والرسالات السماوية جميعاً تدعو إلى طلب العلم وتحث عليه وترى فضلاً لحامليه أكثر من فضائل العبادة، بل تراه أرقى أنواع العبادة، فبه تسمو النفس ويتمّ التقرّب إلى الله، فالعلماء هم أكثر الذين يخافونها لأنهم يعلمون فضله وقدراته أكثر من سواهم { إنما يخشى الله من عباده العلماءُ }. ولكنّ هناك فرقاً كبيراً بين العلماء والمتشبّهين بهم الذين يقلّدون مظاهرهم وما هم منهم ولا يبغون من ذلك سوى خداع الناس لجني مكاسب شخصية فينحنون ويهدرون كرامة العلم والعلماء ليحصّلوا مآرب تافهة تقيس العلم بالمال فيهون العلم ويُهان. وفي مثل هؤلاء قال أبو اسحاق الصابي:

يامن تعمّم فوق رأسٍ فارغٍ ... بعمامةٍ مرويّةٍ بيضاءِ

حسُنت وقُبِّحَ كلُّ شيءٍ تحتَها ... فكأنّها نورٌ على ظلماءِ

هذا بخلاف العالم الذي يحترم نفسه وعلمه ويترفّع عن صغائر الأمور فيكون قدوة لسواه، وفي ذلك قال القاضي علي الجرجاني:

ولو أنّ أهلَ العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظما

ولكن أذلّوه جهاراً ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تجهّما

وجاء في العقد الفريد عن كميل النخعي أنه روى ماأوصاه به علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وفيه: (الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق مع كل ريح يميلون... ياكميل: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله ... مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقي الدهر).

والعلم لايُنال بسهولة ويسر، ولا تكفي النية لإحرازه، بل لابد من الجد والاجتهاد والمثابرة والابتعاد عن وزنه حتى بميزان الذهب، فالعلم يميل إذا ماقيس بالمال، وهو يبدأ بالسؤال من أجل فضيلة المعرفة، ويتطوّر بالدربة والصبر والمران:

بقدر الجِدّ تُكتسب المعالي ومن طلب العُلى سهر الليالي

ومن طلب العلى من غير جِدٍّ أضاع العمر في طلب المحالِ

وهذا لايعني أنه مقصور على شهادات تمنحها الدولة، بل هو متاح ومتيسر لجميع طالبيه وفي كل وقت. غير أن من يطلبه من أجل المال أضاع الاثنين معاً ولم يكن له منهما نصيب.

ونؤكد – هنا – على أن ذلك لايعني الرضوخ للفاقة والحاجة بل لابد للمرء من تحصيل قوته ليقوى على طلب العلم. ويسار المعاش أمر لازم لجميع البشر لقضاء حاجاتهم، إنما الفرق يكمن في الحد الذي يعدّه كل إنسان كافياً لمعيشته بشكل مرضٍ ليصرف وقتاً كافياً في طلب العلم.

والموازنة كلها تشتدّ حين يواجه أحد العلماء سؤالاً شاذاً : كم تتقاضى لقاء علمك. العلم لايوزن بالمال ولا يُقارن به.. وإنما يكسب الإنسان – كسواه – من عمله، لاعلى مقدار علمه، وإنما بمقدار متاح يسمح له العيش بكرامة ويقيه ذلّ السؤال.

يبقى بعد ذلك على العالِم أن يحرص على قناعته برزقه الذي يجدّ في طلبه، ويحرص على استمرار تطوّر علمه وتوسيع مداه، ويحرص على موافقة عمله لعلمه، والموازنة الدائمة من خلال سمت أخلاقي لابد منه لتوجيه العلم نحو ماينفع الناس، بعيداً عن الطمع والحسد. ولأننا نعلم أنه (**فوق كل ذي علم عليم**) لذا لابد لنا من محاولة اكتساب العلم قدر طاقاتنا البشرية، ومن لم يتمكن من التحلي بصفة العالم، الأجدر به أن يقارب العلماء ويلازم مجالسهم لأن الناس إمّا عالم أو متعلم أو مستمع أو همجي يظن نفسه فوق مستوى العلم والعلماء. ولأن حديث العلم بين فضائله وأخلاق العلماء يطول، نكتفي بما ورد في أمالي السيد المرتضى حيث يقول الشاعر:

إن كنت تعلم مااقول وما تقول فانت عالم
أو كنت تجهل ذا وذاك فكن لأهل العلم لازم
أهل الرياسة من ينازعهم رياستهم فظالم
سهرت عيونهم وأنت عن الذي قاسوه حالم
لاتطلبن رياسة بالجهل أنت لها مخاصم
لولا مقامهم رأيت " الكون " مضطرب الدعائم

ونحن متى عرفنا قيمة العلم والعلماء، نكون قد وضعنا اللبنة الأولى على طريق استعادة زمام النهضة العربية الإسلامية من جديد، وطبّقنا قول علي بن أبي طالب : إن من حق العالم أن لاتكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، وأن لاتلح عليه إذا أعرض... وأن لاتطلب زلته، ... وأن لاتفشي له سرّاً، وأن لاتغتاب عنده أحداً، وأن تخصّه بالتحيّة، وإن كان له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته.

فهل نحن اليوم نخدم علماءنا أم نستخدمهم لمآرب خاصة فنصنَّف في خانة الذين يستهترون ويستهزؤون؟!..

أوهام الخطيئة و الخلاص

لكل زمان أوهامُهُ التي يبتدعها أناسٌ وصلوا إلى حافّة اليأس، بعد نضالٍ مريرٍ لاجدوى منه، أو أناسٌ ارتاحوا إلى الكسل، وآثروا أن يعلّقوا أخطاءَهم على مشاجب الآخرين، أو أرادوا أن يحمّلوا أوزارهم إلى من يتوهّمون أنّه يخلّصهم من الآثام التي اقترفوها.

وقد تساهم فئةٌ ما، خدمةً لمصالحها، في ابتكار طرائقَ تُوهمُ النّاسَ بأهميّة أن تفكّرَ عنهم، وتتحمّلَ العبءْ رأفةً بهم وحُبّاً بالإنسانية. ومن هؤلاء بعضُ السّاسة أو المثقّفين أو رجال الدين الّذين يمتطون صهواتِ الخيال، ويتوسّلون سذاجةَ بعض المريدين أو الأتباع، ويجعلون منهم إمّعات، أي تابعين يقولون للمرشد إننا معك، ويردّدون مايطلبُ إليهم ترديدَه.

إن مثل هذه الأوهام ليست جديدة، وإنّما نشأت لدى الإنسان مع بَدءِ الحضارةِ الإنسانيّة وهو يجابه تحدّيات الطبيعةِ من حوله.

في لحظات الضعف يستسلمُ المرءُ ويمنحُ قيادَهُ لقوىً خارجية، كما لو كانت تملك القدرةَ المطلقة على تدبير شؤونِهِ على أحسن مايرام، أو وكأنّها تضمن له حُسْنَ الختام.. بدونِ ضرائب.

وفي قديم الزمان، نشأت في بلاد الفرس فكرةٌ كان لها أثر كبير في الديانات اللاحقة، فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد آمن الفرس بفكرةِ المخلّص الذي سيعود إلى العالم لينقذَ البشرَ من الشرّ والظلم. و (ميترا) منظِّمُ الكون ومنقذُه، تحت إمرةِ الزّمان، سيعودُ يوماً ليضرمَ ناراً تلتهمُ الكون، ويطهِّرَ العالَم من أدرانه، ويبدِّدَ الظلام.

وهذا المخلّص الذي ابتدعه الإنسان منذ القديم لبّى حاجةً أساسيّةً لديه، وهي الرّغبةُ في استحضار حالةٍ تتحقّقُ فيها رغائبُهُ وميولُه. وبما أنَّ الواقعَ المرير، والصراعاتِ التي تحدث بين بني البشر، والمصالحَ المتضاربة؛ تحولُ دون تجسيد الإنسان لأحلامه عمليّاً، فيلجأ إلى عالمٍ غير العالم الذي يعيش فيه بحثاً عن السّعادةِ المنشودة، والعزاء المبتَغى. تعتقد بعضُ المذاهب أنّ الإنسانَ كان في الجنّة هانئاً ناعماً، لكنّ إلحاحَ الفضول، وحبَّ المعرفة، دفعاه إلى اقتراف ذنبٍ أضاع عليه فرصةَ البقاء في العالم العلوي الهادئ، وتحَتَّم عليه أن يَحُثَّ الخُطا، ويواصل السعيَ كي يفوزَ باستحقاقِ العودةِ إلى الفِردوس المفقود.

لكنَّ مذاهبَ أخرى تظنُّ أنّ العالَم المنشود يمكنُ أن يُدرَكَ عند مجيء مخلِّصٍ يملأُ الكونَ عدلاً ورحمة. ومن هنا نشأت دياناتُ الخلاص مثل ديانة (ميترا) التي أخذت فكرة المخلِّص من المزدكيّة، وجعلت (ميترا) المنقذَ الذي سيعودُ يوماً ما إلى العالم، فيبعث الموتى ويُجري الدينونة ويصنعُ الخلود.

وكذلك فعل (ماني) بعد ميلاد المسيح بمئتي عام، حيث قضى حياتَه يبشّر بدين جديد ويحاربُ المجوس. ادّعى (ماني) أنّه المسيحُ الثّاني الذي وعد به يسوع، وأنّه جاء العالم (بديانةِ الخلاص).

لقد حَلُمَ النّاسُ بالخلاصِ من شقائهم، ولم يجدوا أمامهم سوى المخلِّص الذي تزداد الحاجةُ إليه كلّما طغى الشّر وعجزت إمكاناتُ الطبيعة الإنسانية عن التخلّص منه. لذلك اتّخذت بعضُ الشعوبِ إلهاً مخلّصاً، واتّخذت شعوبٌ أخرى نبيّاً أو فيلسوفاً، أو رئيساً للمدينة الفاضلة كما فعل أفلاطون والفارابي.

وقد يتصوّر الناس المخلِّص إلهاً تجسّد في إنسان، كالمسيح عند النصارى، والإمام المهدي وقائم القيامة عند بعض غلاة الشيعة.

نشأت المسيحية وترعرعت في ظلّ فكرة المخلّص التي تأصّلت في النفوس وعندما امتدّ الفتح الإسلامي، وانتشر الإسلام، خارج الجزيرة العربية، اعتنقته شعوبٌ فارسية وسورية ومصرية، لها معتقداتٌ وتراثٌ وحضارة لم تتخلَّ عنها، فاختلط عليها الأمر وظنّت بالإسلام ماليس فيه، ممّا أدّى إلى وجود فرق واتّجاهات مختلفة. ونجد في الفكر الهندي اعتقاداً تتردّد أصداؤه في الديانات الأخرى.

ويذهب هذا الاعتقاد إلى أن كلّ بوذا – وهم خمسة – يتجسّم بحيث يهيّئ الشروط الزمانية والمكانية لإحداث بوذا على الأرض. وعندما تتجمّع الشروط التاريخية الكافية، يتّخذ البوذا شكلاً بشريّاً ويصبح مخلّص العالم. لكنّ هذا لايتمّ إلاّ عندما ينتشر الشر والظلم. ولا شك أن هذا الاعتقاد يذكّرنا بالمخلّص المنتظر أي المسيح الذي مايزال اليهود ينتظرون مجيئه. كما يذكّرنا باعتقاد النصارى الذين يأملون أن يعود المسيح في آخر الزمان ليوقف أعمالَ المسيح الدجّال.

ومن عقائد الشيعة البارزة الاعتقاد بالمهدي. وكلمة المهدي اسم مفعول من هَدى، يقال: هداه الله الطريق، أي عرّفه إيّاه ودلّه عليه وبيّنه له فهو مهدي. ولم ترد كلمة المهدي في القرآن الكريم، وإنما وردت المهتدي " من يَهْدِ اللهُ فهو المهتد" وورد الهادي " ولكلّ قومٍ هاد " وقد ورد في شعر حسّان بن ثابت في وصف النبي الكريم بالمهتدي يقول:

بأبي وأمي من شهدتُ وفاتَه   في يوم الاثنين النبيّ المهتدي

ووصفه بالهادي :

بالله ماحملتْ أنثى ولا وضعتْ   مثلَ النبيّ رسولَ الرحمةِ الهادي

ووصفه أيضاً بالمهدي في قوله يرثيه :

مابالُ عيني لاتنامُ كأنّما   كُحِلَت مآقيها بكحلِ الأرمَدِ

جَزِعاً على المهديّ أُصبحُ ثاوياً   ياخيرَ من وطئَ الحصا لاتبعدِ

وقد وردت في بعض الأحاديث الشريفة كلمة المهدي وهي في كل ذلك بمعناها اللغوي الديني رجل هداه الله فاهتدى. لكنها، فيما بعد، أخذت معنًى جديداً وهو إمام منتظر يأتي فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً. وأول من أطلقها بهذا المعنى مازعمه كيسان مولى علي بن أبي طالب في محمد بن الحنفية، فقد زعم كيسان إمامة محمد بن الحنفية وأنه مقيم في جبل رضوى. وقد مات ابن الحنفية سنة إحدى

وثمانين للهجرة ودُفن بالبقيع، ولكنْ لم يشأ الكيسانية أن يؤمنوا بموته وقالوا بغيبته وبانتظاره حتى يعود، وكان هذا أساساً لفكرة الإمام المنتظر عند الإمامية الاثنى عشريّة.

وهذه العقيدة برجوع الإمام بعد غيبته هي المسماة في عرف الشيعة بالرجعة.

وقد انتشرت فكرة المهدي المنتظر في العصر الأموي، وكان لبعض الأمويين مهدياً آخر يُلقّب بالسفياني.

ومن طرائف ماحدث حول فكرة المهدي أنّه لمّا قال الشيعة بالمهدي وقال بعضُ الأمويين بالسفياني، وضع الشيعة الأحاديث بأن المهدي إذا خرج سيقابل السفياني إذا خرج، وسيبايع الناس المهدي يومئذ بمكة بين الركن والمقام، ثم إن المهدي يقول: أيها الناس اخرجوا إلى قتال عدوّ الله وعدوكم فيجيبونه ولا يعصون له أمراً، فيخرج المهدي ومن معه من المسلمين من مكة إلى الشام لمحاربة عروة بن عمر السفياني ومن معه ... " .

ويبدو أن العباسيين عزّ عليهم أن يكون للشيعة مهدي وللأمويين سفياني وليس لهم شيء، فأنشؤوا لهم مهدياً أيضاً ووضعوا له الأحاديث.

ولعلّ انتشار خبر المهدي حمل المنصور على تسمية ابنه المهدي والإيهام بأنّه المهدي المنتظر.

وقد أُحيطت شخصيّة المهدي بجوّ غريب من التنبؤات والإخبار بالغيب وبحوادث الزمان إلى يوم القيامة، مما مهّد الطريق أن يخرج، بين فترة وأخرى، من بين الناس من يدّعي أنه المهدي المنتظر.

وقد استفادت الصوفية من فكرة المهدي وصاغته من جديد وسمّته (قطباً)، وهو الذي يدبّر الأمر في كل عصر، وهو عماد السماء ولولاه لوقعت على الأرض. ويلي القطبَ النجباءُ الاثنا عشر الذين يعلمون مالا نعلم، كما يقول ابن عربي في الفتوحات المكيّة.

وما يهمّنا الآن هو التخلّص من الفكرة الاستسلامية التي تدعونا إلى إهمال شؤوننا والاتّكاء على مخلّص يتحمّل عنا أوزارَنا أو يفكّر عنا فيما يجب علينا أن نفكّر فيه.

تلك الفكرةُ التي تلبس ألفاظاً متنوعة، كلما كُشف وهمُ لفظٍ منها ابتدعتْ سواه، وهكذا تنقّلت من المخلّص إلى المهدي إلى القطب إلى الغوث إلى الرجعة وسواها ...

وعموماً لايزال هناك شعور بالحرمان. وأن التمتّعَ بالحياة خطيئة وأن الإنسان لايستطيع أن يخلّص نفسه إلاّ بمساعدة قوّة خارجيّة عظمى. وما زالت عقيدة الخطيئة هي الفرضية الأساسية في المسيحية، ويرى أصحابُها أنّ خلاصَ الإنسان إنّما يكمن في التحوّل إلى المسيحية لينعم بالخلاص عبر المسيح المخلّص الذي يتحمّل عنّا خطايانا.

هذا في حين كان العالم الوثني الاغريقي يصوّر الآلهة على هيئة بشر، يمكنه أن يمرحَ معهم بدون أن يشعر بالخطيئة.

وإذا فكّرنا في أن الطبيعة الإنسانية لايمكن أن تكون شرّاً خالصاً بتكوينها، فإنّنا ننعم بحياة هانئة، لأن الله لايمكن أن يعاقبَنا على مجرّد وجودنا في هذا العالم وكل ماعلينا أن نفعلَهُ هو أن نكونَ معقولين في اتّجاهات عواطفنا وفي تصريف غرائزنا أو الامتثال إليها بخفّة ولطف بدون كبت أو مغالاة. ونحن لو أننا مارسنا حياتَنا بشكل لايدعونا إلى الخجل من أولادنا أو أحفادنا حين يطّلعون على يومياتنا، نكون مرتاحي الضمير الذي يعدّه (لين يوتانج) أعظمَ النّعَمْ.

فلماذا ننصرف عن الله إلى سواه من أجل خلاصنا ونحن نعلم أنه (وفوق كلّ ذي علم عليم). ونعي قولَهُ تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلم مابين أيدهم، وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء "..

ونعلم بأنّه لاتثريب علينا من ممارسة حياتنا اليومية بضمير مرتاح لأنّنا نذكر قولَهُ تعالى: (وابتغِ فيما آتاك اللهُ الّدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا " . صدق الله العظيم

عن السعادة والإيمان

لو أننا استطعنا تجسيد الإنسان الكامل وتوافرت الظروف المواتية لعيشنا لما احتجنا إلى الكتابة عن السعادة، ولكنّ النقص يطوّقنا، ولأنّنا معرّضون للاكتئاب ولأن العالم من حولنا ليس كما يجب، نحاول أن نرضى بأنفسنا كما هي ونحب العالم كما هو، مثلما نحب أبناءنا بالرغم من عيوبهم.

إن الكلام على الفرح أصعب بكثير من الكلام على الحزن، والحديث عن السعادة أصعب من الحديث عن الشقاء، لأننا نعيش الحزن والشقاء بسهولة فهما استسلام للمحيط المفروض علينا، أما التغيير فهو الذي يحتاج إلى الجهد الأكبر وهو الشيء الذي لم نتعوّد عليه بعد.

إن وراء أي فعل نقوم به يقبع دفع لألم أو طلب للذة.

نطلب الصحة والمال والجمال وننفر من المرض والفقر والقبح، لماذا؟

لأننا مفطورون على دفع الألم وطلب اللذة. الصحة تسعدنا والمال يسعدنا والعلم يسعدنا والجمال يسعدنا أما المرض والفقر والجهل والقبح فهي بعض مصادر الشقاء الذي نحاول دفعه بعمل تتوّجه السعادة.

السعادة .. تلك الكلمة السحرية: هل تلبس ثياب الفضيلة أم تعتمر الخير، أم أنها تختفي بين أحضان التأمّل، أم أنها إشراقة صوفية لاتُلمح لحظتها إلاّ عبر الغياب في الله ؟

إنها ذلك كله أو إن تلك بعض صورها، أما هي فإنها كالهواء تعبر مسامنا حين ننتبه إلى ضرورة إعطائها جوازاً للمرور ولا ننصّب الغضب أو الخوف أو الحسد أو الندم شرطة تطلق عليها النار كلما هبّت بالعبور إلى شعورنا.

وإذا كنا لانستطيع أن نغيّر جوهر الطبيعة من حولنا، كذلك لانستطيع أن نغيّر طبيعتنا الإنسانية أو أن نتجنّب احتياجاتنا الضرورية التي تدعونا إلى دفع الألم وطلب اللذة أو السعادة لأنها الشيء الملائم لتكوين الإنسان، وعلى ذلك تكون السعادة غاية الغايات وهي الرضا بما تناله النفس من النعم المتاحة. فهي غاية تُرجى ووسيلة تتوسّل الذات بها لبلوغ الحق والخير والجمال بوصفها قيماً تُسعد الإنسان. ومهما تكن الألفاظ التي تُطلق عليها مختلفة ومختلَف حول حدودها ومعانيها، تبقى هي هي تعبّر عن شعور ينبعث في النفس فتطمئن وتسكن فإذا منحتنا إحساسات جسدية مُرضية تتعلّق بالحواس الخمس ملمساً ومذاقاً ورائحة ومنظراً ومسمعاً دعوناها لذّة نرتاح إلى طلبها مرّة بعد أخرى. وإذا داهمتنا حالة شعورية استدعت انفعالاً جمالياً فنياً أو أخلاقياً أو فكرياً واتصفت بالامتداد والعمق ومنحتنا شعوراً بالانتصار دعوناها نشوة. والسعادة هي هذه وتلك، لذة ونشوة يصيبها الإنسان فيضاف إلى تعاريفه تعريف جديد.

لقد عُرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق أو عاقل أو صانع أو مفكّر أو شاعر أو ضاحك أو متديّن فإن صح ذلك كلّه فإنّ الإنسان أيضاً حيوان سعيد.

ولكننا نفضّل أن نعرّف الإنسان بأنه إنسان وحسب، وإذا سمحنا لأنفسنا بالخروج من معاجم اللغة وقوانين المنطق لنبحث في جوهر الأشياء لافي صورتها نجد أن الإنسان كائن سعيد بالطبيعة شقي بالاكتساب، وكل الشرائع والأديان والقوانين إنما جاءت للإبقاء على سعادته فهو غايتها لاوسيلتها إلى شيء آخر.

ويقابل السعادة الشقاء الذي يدفعه الإنسان عن نفسه تجنباً للباطل والشر والقبح، فإذا كان الأصل أن يتمتع الإنسان بالصحة والسعادة، يكون الشعور بالتعاسة مرضاً يجب علاجه. لقد رأى بعض الفلاسفة أن السعادة تكمن في الفضيلة أو في الخير أو في التأمل العقلي أو في الاتحاد بالله وحسب، ولكنّ بنية الإنسان تخالف مايذهبون إليه، إنه يشترك مع النبات في التنفس والهضم والتناسل، ويشترك مع الحيوان بالإحساس والحركة، وينفرد بالعقل والتأمّل؛ فما الذنب في أن يوافق الإنسان بنيته النباتية ويروي غرائزه الحيوانية وينتشي بعقله ؟

لقد خُلق منظماً متوازناً ثم تعلّم إقامة حرب بين عقله وجسده ناسياً أن الدوافع جزء من كيانه فلا هي كيانه كله ولا هو مجرّد منها، فكيف يحارب الإنسان نفسه ويعزّز الازدواجية التي يعيش؟ بل كيف له أن يسعد بوساطة امتناعه عن شروط سعادته؟ أيكون ذلك بتعزيز الانفصام لديه ليبقى يعاني فقدان احترام الذات ويبقى مشدوداً إلى حصانين مختلفَي الاتجاه، واحد يجرّه باتجاه السماء والثاني يحاول إبقاءه على أرض الواقع التي اتُّفق – زوراً – على أنها مصدر الدنس وموطن الآثام؟ إن كثيراً من الناس يلاحقون السعادة بطريقة تدعوها إلى الهرب منهم فزعة من مطاردة قاتلها وإنما يكون ذلك بازدواجيتهم، ففي العلن يطلبون الآخرة ويعرضون عن الدنيا وفي السر يشترون الدنيا بالآخرة ولأنهم يعلمون مابأنفسهم من خداع يغرقون في احتقارها مما يفضي بهم إلى مزيد من الخساسة والضعة. لقد انحرفوا عن قيمهم المعلنة – مؤمنين وملحدين – حتى انقلبت شعارات، وتراهم يتظاهرون بالصدق والكرم والزهد في حين أنهم يخضعون لحاجاتهم الجسدية والنفسية بشراهة يعوّضون بها عن اعتقاداتهم المتطرفة فينهشون وينافقون ويجحدون فما أحراهم أن ينتبهوا إلى أنفسهم محاولين الانسجام مع مطالبهم من غير مبالغة أو اعتساف.

لقد نسي هؤلاء أن أقوالهم – مهما بدت منطقية – لايمكنها أن تقنعنا بالقدر الذي يستطيع أن يفعله سلوكهم، هذا فضلاً عن أنها غير قادرة على إقناعهم هم أنفسهم بها. هذا نموذج. أما النموذج الثاني فيبدو جلياً في أولئك الذين انفتحوا على العالم بأقصى إمكانياتهم لايتورّعون عن إتيان أي شيء يتوقّعون منه إسعادهم، إنهم أدعياء اللهو، ولكنّ الإغراق في اللهو لايعبّر عن سعادتنا بما نلهو به وإنما يدل على محاولة للهرب من الحياة، إنه فراغ ومحاولة للابتعاد عن شيء ما حتى يختفي في اللاشعور.

إن في الإيمان، ولو وهماً، مسرّة لايمكن وصفها ولكنّها تُعاش. وهذا يعني أن الإنسان مخلوق فُطر على الإيمان والانتماء اللذين يوفّران له الانسجام النفسي الذي ينشده، وأنه بدونهما يعيش قلِقاً مشتّتاً ويعاني الاضطراب.

الكتاب والضَّرَّة

للكتاب نكهة خاصة لايعرف قيمتها إلاّ من عاش نشوة حب الكتاب. تكون عاشقاً لمحبوب لايخذل عندما تندفع لشراء صحيفة أو مجلة أو كتاب بنصف ماتملك من نقود.. تتأمل غلافيه.. تستمتع بتفحّص أوراقه.. تستنشق رائحة الورق.. ثم تهيّئ طقوس القراءة مبتدئاً بالفهارس، ثم بالمقدمة.. وتغوص في أعماقه بمتعة لاتُدانى.. تقرأ وأنت تتمنى أن يبارك الله الكتاب فلا ينتهي.. تضعه في مكان لائق وتمتّع ناظريك به كل حين.

وحين يفخر الآخرون بما لديهم من مقتنيات، تسارع إلى إعلان اعتزازك بالكتب التي لديك.

الكتاب هو المحبوب الوحيد الذي يمكنك أن تنوّع فيه من غير أن يتّهمك أحد بالخيانة. بل إن الكتاب نفسه هو الذي يدفعك إلى عالم الكتب الرحب لتهوى الكتب واحداً إثر آخر. وعشق الكتاب يدفعك إلى السهر للاستمتاع بالقراءة وبمتعة الاكتشاف، ولا تبالي – بعد ذلك – بنصح والدتك: – إنك تضيّع وقتك في قراءة الكتب وتؤذي عينيك "قوم نام وريّح جثّتك " لتصحو باكراً لتعمل في ماينفع.

بل إنك تتحمّل المعاناة بعد الزواج.. تمتد الكتب إلى غرف المنزل، غرفة غرفة، وتهدّدك الزوجة بإجراءات صارمة تجاه هذا الهَوَس بالكتب.. لكنك – رغم وعودك – تبقى تنفق على الكتب.. وتبقى حريصاً على انسلال الكتب إلى المنزل كلّ حين.

وليست قليلة هي حالات الجفاء والخصام بين الزوجين التي كانت الكتب سبباً لها، أحدهما مولع بالكتب والآخر يراه باباً لتضييع الوقت والمال معاً.

ذلك كله كان حتى عشر سنوات خلت، أمّا الآن فقد جاءت / ضرّة / خطرة للكتاب، بدأت تستقطب المثقفين وتستحوذ على اهتمامهم، وتحوّل هوى الكتاب إليها.. إنها "أقراص الكومبيوتر" التي بدأت تُشيع الكتاب المسموع وتغري بتوفير المكان، حيث يمكن للقرص الواحد أن يضمّ مكتبة تحتل مساحة كبيرة من غرفة واسعة. لذلك بدأ كثير من المثقفين يتخلّون عن مكتباتهم الضخمة ويستعيضون عنها بأقراص تحمل أسفاراً، وتستطيع إخفاء هذا الهوى.

وبالرغم من ذلك، يصرّ كثير من محبّي الكتاب على البقاء أوفياء لمحبوبهم الأول " الكتاب الورقي" الذي يحمل ذكريات جميلة لاتُنسى.

فإذا نصح لهم أحد هواة الكومبيوتر باتّباع التقنية الحديثة، يقولون: نحن لانعارض تطوّرات العصر وتقنيّاته، لكنّ متعة قراءة الكتاب الورقي لاتعادلها متعة أخرى.. يبقى بمنأى عن "الفيروسات" التي تطال الكومبيوتر.. تصطحبه معك حيث تشاء، وتضعه تحت الوسادة. هذا الشيء الكهربائي الذي يحمل شاشة صغيرة، لايعمل إلا من خلال دليل يعلّم استخدامه.. وهذا الدليل هو عبارة عن كتاب.

وهل يمكن مقارنة /كبسولة/ تحتوي على كل البروتينات والفيتامينات والعناصر الغذائية التي يحتويها /المحشي/ بالمحشي نفسه ؟!

أين نكهة / كبسولة / الكبب من الكبب نفسها ؟..

وهل يُلخَّص "البيرق" بالعناصر الغذائية فيه؟!،،

الكتاب هو الأصل، وكل ماعدا ذلك تنويعات لاتغني عنه مهما طال الزمان ومهما اختلفت الآراء حول شكل الكتاب وطرائق تلقّي الكلمة، تبقى البلوى الحقيقية في أولئك الأميين الذين يصرّون على الجهل، مدّعين أن الحياة وعلاقاتها هي المعلّم الوحيد، لذلك لايقرؤون.

القتل الرحيم ومشكلات الخوف والألم

هل يمكن أن تكون طلقة الرحمة حلاً للأمراض المستعصية والشيخوخة؟

متى نفكّر بالموت بوصفه حلاً لما نعانيه؟ وهل يمكن أن يكون التخلّص من الحياة أمراً قابلاً للتنفيذ؟

وهل تسمح الأديان حتى بمجرد التفكير في الموت الرحيم ؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت مدار محاضرة ألقاها الأستاذ إحسان الكيالي في جمعية العاديات، فكانت ورقة بحث مثيرة للجدل بين مؤيِّد ومعارض.

وتكتسب هذه المحاضرة بعض أهميتها من مواكبتها لما يحدث في العالم بعد أن أصدرت هولندا (قانون الموت الرحيم) بعد إقراره من جميع المراجع الدستورية فغدا قانوناً يُعمل به اعتباراً من أول أيلول الماضي.

بعد جدل واستفتاءات ونقاش دام ثلاثين عاماً، صدر أول قانون في العالم يقونن وينظّم الموت الرحيم ويعدّه عملاً مشروعاً وفق حالات وشروط دقيقة حدّدها المشرّع. غير أن معارضي القانون اتهموا الحكومة الهولندية بأنها أصدرت هذا القانون لتخفّف من مصاريف المعالجة الطبيّة والأدوية للمواطنين.

جمع المحاضر الوثائق المتعلقة بالموضوع ودرس نص القانون الذي يتعلّق بهذه المادة من خلال معونة الأستاذ حسين المدرّس قنصل المملكة الهولندية بحلب، وعكف على اختيار الطريقة المثلى ليقدم محاضرة شاملة ومقتضبة تلمّ بالموضوع من جوانبه كافة.

في البداية قدّم الباحث تعريفاً للموت الرحيم بقوله: " هو استجابة الطبيب المعالج لرغبة مريضه، بإنهاء حياته نتيجة لمعاناة هذا المريض من آلام مبرّحة لايمكن تحمّلها، والميؤوس من شفائها نهائياً وقطعياً " ثم تساءل: هل يُعتبر هذا العمل جريمة قتل يعاقَب عليها الطبيب، أم يُعدّ عملاً إنسانياً مشروعاً؟

إذا كان القتل بدافع الرحمة يعني إنهاء حياة إنسان أو مساعدته على الانتحار فإن الأديان كلّها تحرّم ذلك تحريماً مطلقاً وتعتبره جريمة قتل، لأن الله هو الوحيد الذي يحيي ويميت. فالديانتان – اليهودية والمسيحية تحرّمان القتل بحسب الوصية الخامسة من الوصايا العشر " لاتقتل " والكنيسة ترفض الإجهاض والموت الرحيم بحسب ماجاء في تصريح المطران يوحنا جنبرت في معرض ردّه على سؤال عن مشروعية الموت الرحيم. وقد حرص الإسلام على حياة الإنسان ولم يجعل النفس ملكاً حتى للإنسان ذاته، وإنما هي ملك لله استودعه الله إياها، فلا يجوز له الانتحار، كما لايجوز له التفريط فيها بواسطة الغير ولو كان طبيباً يهدف إلى إراحة المريض من آلامه.

هناك جملة من الأسباب التي يتمسك بها أخصام نظرية القتل الرحيم، منها أن هناك مئات الحالات من المرضى الميؤوس من شفائهم قد منَّ الله عليهم بالشفاء وعاشوا عشرات السنين بعد أن كانوا

يُحتضرون، وأن العلم يأتي كل يوم بجديد، ومن الممكن للمريض الذي لاعلاج له اليوم أن يشفى غداً، وأن مهمة الطبيب حماية حياة المريض ومتابعة علاجه بكل الوسائل الممكنة، وفقاً لِقَسَم (أبقراط) الطبي.

وبالرغم من ذلك كله، هناك رأي مختلف في الموت الأكلينيكي فأحد شيوخ الأزهر، يورد قولاً في كتاب (بيان للناس) للشيخ جاد الحق علي جاد الحق يقول فيه: ((أما بالنسبة للموت الأكلينيكي فإنه يمنع تعذيب المريض المحتضر باستعمال أية أدوات أو أدوية متى يتبين للطبيب أن هذا كله لاجدوى منه، وعلى هذا فلا إثم إذا أوقفت الأجهزة التي تساعد على التنفس وعلى النبض متى تبيّن للمختص القائم بالعلاج أن حالة المحتضر ذاهبة به إلى الموت)). ولقد استند شيخ الأزهر السابق جاد الحق في ذلك إلى مقررات مجمع الفقه الإسلامي الثالث التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في عمّان بالأردن عام ١٩٨٧ حول أجهزة الإنعاش والموت الأكلينيكي. وهذا ما أقرّه أيضاً مؤتمر جنيف الدولي المنعقد عام /١٩٧٩/ إذ عرّف المؤتمر الموت بتوقّف جذع المخ عن العمل بغضّ النظر عن نبض القلب بالأجهزة الصناعية. ورفع تلك الأجهزة الصناعية عن المريض هو ماسمّاه المحاضر بالموت الرحيم السلبي ومال إلى جوازه من غير تصريح علني واضح.

أما عن الموت الرحيم من الناحية القانونية فإن جميع القوانين والتشريعات في أكثر بلدان العالم لاتقرّ به لأي سبب من الأسباب، وتوجب العقاب على من يقوم به. وقانون العقوبات السوري صنّف هذه الأعمال في باب القتل القصد، ويعاقب مرتكبه بالأشغال الشاقة من خمس عشرة إلى عشرين سنة. أما الأستاذ إحسان كيالي فهو لايخفي ميله إلى مشروعية الموت الأكلينيكي قائلاً: ((يجب المطالبة بتعديل قانون العقوبات ... والأخذ بنظرية الموت الأكلينيكي على الأقل ... وإن إقدام الطبيب بهذه الحالة على نزع جميع الآلات والأدوات وإيقاف الأدوية عن المريض يُعتبر عملاً مشروعاً وهذا ماعبرنا عنه بالموت الرحيم السلبي)). ورأى أن الموت الرحيم يمارَس بشكل خفي في كثير من المجتمعات بالرغم من حظره دينياً وقانونياً، والذين يقومون به يبررون فعلهم بدوافع إنسانية محضة لتخليص المريض من وضع ميؤوس من شفائه. وعلى سبيل المثال فلقد اعترف أحد الأطباء الفرنسيين بأنه مارس الموت الرحيم على العديد من مرضاه، كما أن ممرضاً أمريكياً أطلق على نفسه اسم **ملاك الموت** حيث كان ينهي حيوات بعض المرضى الميؤوس من شفائهم، حتى أنه – في إحدى المرات – خنق مريضاً ظل يتنفس بعد أن نزع عنه جهاز التنفس الاصطناعي.

وهناك عدة دول تبحث الآن إمكانية الاقتداء بهولندا مثل استراليا ونيوزيلنده وفرنسا وسواها لإصدار قانون مماثل للقتل الرحيم. وهذا الأمر، بالفعل، يستدعي التفكير ملياً قبل إبداء رأي قاطع فيه.

كلّ يوم رمضان

الصيام لغةً : الإمساك والكفّ عن الشيء. وشرعاً : الإمساك عن الطعام والشراب والجنس، من الفجر إلى غروب الشمس. وفقهاً : الإمساك عن الشرّ وكفّ الأذى منذ الولادة حتى الموت.

وإذا كان الكفّ وحده لايكفي مالم يتلوه جارّ ومجرور يبيّن الفعل الذي يجب تجنّبه، فإنّ الصوم الشرعي يتّصل بالصوم الفقهي ولا يتمّ إلاّ به.

الصوم الذي فرض على المسلمين امتثالاً لقوله تعالى { ياأيّها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتقون } هو أيام معدودات يمكن أن يُستثنى منها المريض والمسافر، فيعوّضها بأيّام أُخَر، أو بفدية. لكنّ هذا الاستثناء لايُبيح للإنسان – المسلم وغير المسلم – في البلاد الإسلامية أن يجهر بفطره، وذلك احتراماً لشعائر العبادة التي هي مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي والأعراف والتقاليد التي يتميّز بها شعب من سواه.

والصيام الذي كُتب – بسماته الشرعية – إنّما يرمي المشرّع من ورائه إلى أمل بالإنسان أن يقي نفسه الآثام { لعلّكم تتقون} .

ولهذا جاء الحديث الشريف موضّحاً مواصفات الصيام (إنّما الصوم جُنّة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم.. إني صائم) وهنا يمتد الصيام ليشمل ترك التشاتم والتسافه، والبعد عن كل مايضرّ المجتمع أو أي فرد فيه، وهجر كلّ مانهى عنه الإسلام، وإتيان كلّ ماأمر به. فلا صيام للذين يغشّون أو يرتشون أو ينمّون، كما لاصيام يُقبل من الذين يؤذون الناس – بقصد أو غير قصد – ويعطّلون مصالحهم إما بقصد منفعة (رشوة) أو باللامبالاة التي يواجَهُ بها أصحاب الحاجة من الذين أوكلتهم الأمة لقضاء المصالح، أو بحجّة الصيام الذي يشعر بثقله من يقتصر بصيامه على الحدود المادية للصوم، ممّا يجعله يتأزّم فيضيق حلمه وتغالبه طباع فاسدة تأصّلت فيه. يقول الرسول الكريم (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه).

وهنا نصل إلى فائدة عظيمة يمكن أن يجنيها الصائم من خلال التزامه بأوامر الله، حيث يمرّن نفسه على الصبر وتقوية الإرادة، ممّا يمنحه احتراماً لذاته حين يلاحظ أنها تقوم بفعل مجاهدة لايُلزمها به أحد من الناس. وإنما هو أمر طوعي التزم به الإنسان تجاه خالقه، ولا رقيب عليه سواه.

يجوع فتسمو نفسه وترتفع عن الصغائر وتميل إلى الشعور بمعاناة الفقراء الذين لايملكون إلاّ النذر اليسير من أقواتهم بسبب مغالبة أصحاب اليسار الذي يكنزون على حساب الآخرين ويسرقون جهدهم وثمرات أعمالهم.

لقد اعتدنا أشياء كثيرة نحاول التخلّص منها، ورمضان فرصة طيّبة لكي نمتحن قدراتنا على ترك عاداتنا الذميمة لنبني عادات أخرى نرغب أن نتحلّى بها.

فلنحاول على صعيد التسامح والمحبّة وترك الشرور وإغراءات سلطان المال والقوّة، على صعيد الروح والاتّجاه نحو النور الإلهي، على صعيد التآخي والتراحم... لنحاول أن نجعل كلّ يوم رمضان.

ولنتذكّر حديث رسول الله (ﷺ) : (من صام رمضان وعرف حدوده، وتحفّظ ممّا كان ينبغي أن يتحفّظ منه، كفَّر ماقبله (.

جعلنا الله في عِداد الصالحين، وأعاننا على مكافحة الشرّ، مبتدئين بأنفسنا [التي نستثنيها عادة] كي لانغدو كالذين يأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم . آمين

الجّار والّجـور
ومغبّة الانزياح

يبدو أن الانزياح في النقد الأدبي امتدّ ليشمل الحياة الاجتماعية بأشكالها المختلفة. وذلك بعد انزياحه عن معناه الجمالي واقتصاره على تثبيت مايعكّر صفو الحياة، فغدا الجوار جوراً وصرنا نجوّر بعضنا بدلاً من أن نتجاور.

جاء في المعاجم : جار جوراً: سأل أن يُجار، وتأتي بمعنى ظلم فهو جائر يتقن الجور. وأجاره: حماه وأنقذه. وجاء في التنزيل العزيز **(وهو يجير ولا يُجار عليه)** أجارنا الله من جيران السوء.

ومن معاني المجاورة: المساكنة، ساكنه أي لاصقه في المسكن، وأعطاه ذمّة يكون بها جاره ويجيره. ونحن نستجير من غلاء الأسعار وانخفاض الدخول، ومن أذى الجيران بالمنزل والعمل والشارع، وبعد تجربة مرّة اتّضح أن الاستجارة بمعظم الرؤساء في العمل، وبأصحاب القرار في المدينة، وبالبلدية.. ذلك كله لاينفع وما لنا غير الله من مجير كي يعلم جيراننا كيف يخطون الخطوة الأولى على دروب المدنية والحضارة. وكي لايستثني أحد نفسه من الانتباه إلى أهميّة حسن الجوار نورد المثل القائل (إيّاك أعني واسمعي يا جارة).

ومن معاني الجوار: العهد والأمان. لكن الواقع الذي نراه أن الجوار انقلب إلى (جوّار) يحفر لنا حفراً عميقة كي نقع فيها. ولعل ذلك يتضح بصورة جلية في اللوائح الانتخابية التي يتعاهد أصحابها على التكاتف ثم يتخاذلون ويتآمرون مما يشي بطبائعهم التي يصف عكسها لقمان في وصيته لابنه:

واعرف لجارك حقـه والحق يعرفه الكريم

وهو القائل :

ابني، حملت الحجارة والحديد، فلم أر شيئاً أثقل من جار السوء.

وأين نحن من قول عنترة :

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وفي المعنى نفسه قال الشاعر مسكين الدارمي:

أعمى إذا ماجارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر

وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس، قالت:

يارسول الله ماسوء الدار؟

قال: (ضيق مساحتها وخبث جيرانها).

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها، فقال صلى الله عليه وسلم: (هي في النار). وقال:

أتدرون ماحقّ الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عِلته، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنّأته، وإن أصابته مصيبة عزّيته، ولا تستعلِ عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهدِ له، فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك فيغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قِدرك إلاّ أن تغرف له منها.

وفي المعنى نفسه يقول أحد الشعراء :

سأطرح من قدري نصيباً لجارتي **وإن كان مافيها كفافاً على أهلي**

إذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي **يكون قليلاً لم تشاركه في الفضل**

وللشعراء العرب إسهامات واسعة في حفظ الجار وصيانة حقوقه، ومن ذلك ماقاله أبو فراس الحمداني:

أنا الجار لازادي بطيء عليهم **ولا دون مالي في الحوادث باب**

ولا أطلب العوراء فيهم أصيبها **ولا عورتي للطالبين تصاب**

ومما يذكر قوله وهو يفخر بنصرة جيرانه:

ألم ترنا أعزّ الناس جاراً **وأمرعهم وأمنعهم جنابا**

ولكنّ حق الجوار ليس في كفّ الأذى وحسب بل في احتماله أيضاً، وفي الرفق بالنهي عنه. بل لابد من إسداء المعروف إلى الجار أيضاً إذ يقال:

إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول:

يا رب سل هذا لما منعني من معروفه وسدّ بابه دوني.

بل إن بعض الأدباء يدعون إلى الصفح عن الجار حتى حين تكون العداوة مستحكمة، يقول أحد الشعراء :

وعندي لصلح الجار إن شاء موضعاً **وإن جار أو لم يُبقِ للصلح موضعاً**

فمن منّا يؤدّي لجيرانه (في البيت والعمل) بعض حقوقهم، ومن منّا ينهى عن تطبيق القول :

أنا أحقّ بأكل لحم جاري من سواي ؟!..

إني أعتذر يا أبي

لقد تعبت ياأبي. لم أعد قادراً على احتمال العالم. الضغوط التي أعانيها تجاوزت حدود الاحتمال، ولم أعد قادراً على الصمود. كنت (أرى ماأريد) حتى اكتشفت أن العالم ليس كما ينبغي.

الأصدقاء تتوالى خياناتهم. ويوماً بعد يوم يتّضح لي أكثر أن الإنسان كائن وحيد.

أنا وحيد ياأبي، وكل الذين يحيطون بي وحيدون، لكنّهم يتشاغلون عن الوحشة بافتعال الخلافات والحسد والمنافسة، كلهم يتصارعون كي يتناسوا هذه الوحدة القاتلة التي تحيط بنا.

صبرتُ طويلاً ياأبي.. عاندت وقاومت.. توهّمت أهدافاً أريد تحقيقها ثم اكتشفت – متأخراً – فداحة أوهامي وأنني كنت (أرى ماأريد) وأحاول تحصين نفسي وأسرتي، وأكافح كي يستمر حلمي بوطن رحب جميل يغدو كما ينبغي. لكنني فُجعت ياأبي.. فالقيم النبيلة حبر على ورق، وكلمات تلوكها الألسن ولا تدركها القلوب.. وكل الذين نحبهم ماهم سوى كائنات ورقية يفسدها التجسّد بعد أول مصافحة لاتليق... أو هم يغادرون سريعاً كي نُفجَع بهم.

تعبت ياأبي.. ولأن الطفل النزق لاتزال طفولته تكبر في داخلي، قررت الاستسلام.

تعبت ياأبي فاعذرني.. سأسلّم مركبي للريح وأستريح.. تكشّف زيف الأحلام، واتّضحت عبثية اللهاث.

خذ ماتشاء أيها العالم الصلب من ليونة عمري الذاوي. فقط، دعوني أسترح..

تعبت ياأبي.. فلا الحب حب، ولا الصدق صدق، ولم يعد للصداقة معنى. بدأت الأمور تتساوى في داخلي، والظلام يلفّ أعماقي.. والوحدة تشتد.

حقوقي تتسرّب مع مجاري المياه، وواجباتي تتراكم كجبل يستريح على صدري.. حتى تعبت..

اعذرني ياأبي.. أيها العالم الجميل اعذرني.. يامن تحبونني اعذروني، لم أعد قادراً على الصمود.

خذوا ماتشاؤون أيها الراغبون، خذوا كل مالدي كي أستعيد سكينتي.

آهٍ كم أرغب أن أستيقظ ذات صباح.. أتناول قهوتي.. أعدّ حقائبي.. أودّع الأصدقاء وأعتذر لكل الذين أسأت إليهم لأنني أسأت فهمهم.. أجمع أسرتي.. أكتب الوصية ثم أغادرهم بسلام.

هذا الحاضر الغائب

لاشيء أقسى على الإنسان من الشعور بأنه كائن وحيد، وأشد ماتكون الوحدة قسوة تلك التي يعانيها الإنسان وهو على فراش الموت.

حين يحتضر المرء يشعر بأنه يموت وحده، وأن الحياة بعده مستمرة، هذا مايجعل الموت مخيفاً. لكنّ التذكّر الدائم أن كثيرين ماتوا قبله.. وأنه سيذهب إلى حيث يجد آخرين، وأن هؤلاء الذين يرقبون موته الآن هم أيضاً سيلقون المصير نفسه، ذلك يخفّف عبء المأساة عليه. غير أن الموت الذي يداهمه يشتد ثقله حين يتذكر واجباً مهمّاً لم يقم به بعد كي يجعل موته مطمئنّاً :

" **يا أيتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**" لذلك تطول فترة الاحتضار على قِصَرها.

الاحتضار لحظة خاطفة تطول في الزمان الذاتي وكأنها دهر بأكمله، حيث يمتد شريط ذكريات الإنسان عبر حياته كلّها في تلك اللحظة...

يستحضر ذاته ويراقبها وكأنها موضوع خارجي، فيرصد أفعاله ويحكم عليها بحيادية صارمة ينتقل بعدها إلى الشعور بالرضى أو يكابد آلام ماقترفته يداه.

والموت.. هذا الحاضر الغائب.. هل يكون التفكير فيه ترفاً فكرياً لامبرّر له، أم أنه من لزوميات الحياة ؟

وهل نهجر التفكير فيه لأننا منشغلون بالتفكير في الحياة، أم لأننا لانستطيع أن نقتحم أسوار الغموض العالية؟

وبمعنى ما فقد أجاب " لاروشفوكو " قديماً عن هذا السؤال:

" ثمة شيئان لايمكن أن يحدّق فيهما المرء: الشمس والموت".

لكنّ الإنسان الذي استطاع أن ينفذ إلى بعض أسرار الشمس من خلال تقنيّات العصر، يمكنه أيضاً أن يقارب موضوع الموت دونما خوف أو وجل. ولأنّ " **كلّ نفس ذائقة الموت** " لابد لكل نفس في إعداد العدّة لذاك الذي يغزوها ولو بعد حين " **واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً** " .

التفكير الطبيعي في الموت وتأمله والاستسلام له يبعث على السكينة والهدوء.. أما التفكير فيه إلى حد الوسواس فهو ناتج عن إحساس المرء بأنه فشل في الحياة ولم يستطع تحقيق كثير من إمكاناته وأمانيه.

أن نموت بعد أن نشعر بأننا / قد عشنا / يختلف عن موتنا حين نكون مانزال نستعد للحياة بعد.. إنه شعور بالتقصير أو الإثم تجاه حياة لم نجعلها ممتلئة بما هو متاح.

وبعد، أليس من حقّنا ومن واجبنا أن نتساءل عن الموت وأن نتلمّس الإجابات الممكنة ماستطعنا إلى ذلك سبيلاً ؟

هل الموت هو النهاية وهو الفناء، أم أنه جسر انتقال إلى عالم الأبدية والخلود؟

تقول أسطورة / ناما / المنتشرة بين / الهوتنتوت/ في جنوب افريقيا: إن القمر أرسل القملة يوماً لتعِدَ الإنسان بالخلود، وكانت الرسالة تقول: " كما أموت وفي مماتي أحيا كذلك أنت ستموت وفي مماتك تحيا " وصادف الأرنب البري القملة في طريقها ووعد بنقل الرسالة نيابة عنها، غير أنّه نسي محتوى الرسالة ونقل البديل الخاطئ قائلاً " كما أني أموت وفي مماتي أفنى.. الخ " ولمّا علم القمر بما حدث ضرب الأرنب البرّي على شفته فأصبحت مشقوقة منذ ذلك الحين.

وهذا الخلود الذي قال به كثير من الفلاسفة، جاءت الديانات السماوية لتؤكّده، على ألسنة الأنبياء، حيث يتم خلود النفس الصالحة في جنان النعيم. الإيمان بذاك الخلود يجعل واقعة الموت أخفّ وطأة مما نظنّ.

والوحدة تخفّ حدّتها عندما نبقى على تواصل مستمر مع من هو أقرب منّا إلينا.

في كل المحن، وحين يتنكّر لنا الآخرون، نصرخ في أعماقنا: ياالله.. فتسكن النفس وتهدأ الآلام ويأتينا الفَرَج من حيث لانحتسب.

أرأيت إلى حنوّ الأم على ابنها، والحبيب على من يحب، والرائي على عينيه، الله أقرب وأكثر حناناً على عباده الضعفاء " **وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني**" هو الواحد الوحيد الذي لايفارق عبداً من عباده في ليل أو نهار، في نجاح أو محنة، في حياة أو ممات..

لكنّ مشكلتنا الكبرى أننا ننسى ذلك، كما ننسى أننا في أي لحظة معرّضون لاستقبال ذلك الضيف اللطيف الذي يخلّصنا من الشرور والآلام لنبدأ حياة جديدة لاخوف فيها ولا أمراض.

إلـى أن ينتهي وقتنا

الوقت هو ذلك الشيء الذي نحرص – نحن العرب – على تبذيره بكل الوسائل الممكنة. ولأنني واحد من العرب لم أشأ أن أشذ عن القاعدة وأمنح نفسي استثناءً كي أحترم الوقت وأفعل ماكان يفعله أجدادنا في العصور السالفة.

جلست أمام الشاشة (الخطيرة) ورحت أتنقّل بين القنوات وأنا أفكّر بالذي يمكن أن أكتبه عن ذلك الوقت الذي اقترحت ملفاً عنه: هل للوقت علاقة بالساعة؟ أم أنها مجرد علاقة رمزية تعزز كسلنا الفكري فننظر في الساعة بين آن وآخر من دون أن نعي قيمة الوقت فعلاً؟. ولماذا لانفعل مثل الكائنات الأخرى التي تكتفي بساعاتها البيولوجية بدءاً من (البروتوزوا) التي هي أكثر الكائنات الحية تواضعاً إلى الحية. حتى إن بعض الكائنات العضوية كالنبات، تتواءم مع ساعاتها الداخلية حين تبدي حنيناً عملياً من خلال حركتها البطيئة نهاراً لتحصل على قدر أكبر من ضوء الشمس.

وقد لاحظ الفرنسي (دوميران) عام /١٧٢٩/ أن بعض أنواع النبات تطوي أوراقها أثناء الليل وتنشرها طيلة النهار، وهذا الطي والنشر اليومي للأوراق يستمر دون توقّف حتى حين توضع في ظلمة دائمة. وهذا يعني أن النبات يعرف متى ينبغي أن يكون الوقت نهاراً أو ليلاً.

لكنّ هذا التوقيت البيولوجي الرحب قد يجد تضييقاً قسرياً، يقوم به العالم الخارجي تجاهنا أو تجاه أي كائن في العالم. فإذا قمنا بحيلة مثلما فعل (دو كاندول) عام /١٨٣٢/ حيث جعل الضوء يسقط على النباتات أثناء الليل، ومنع عنها الضوء خلال النهار، إذا فعلنا ذلك نجد – بعد فترة من التكيّف – أن دورة حركة النباتات تتبع اليوم المصطنع وتهجر اليوم الحقيقي الذي يبقى مجرد شيء محفوظ في الذاكرة.

وعلى هذا النحو تشعر الكائنات بالتوقيت الداخلي، وينطبق هذا الأمر على الطيور المهاجرة والنحل والنمل والعناكب والصراصير وسواها وصولاً إلى الإنسان الذي يبدو أنه أكثر خضوعاً للتوقيت القسري من سواه من الكائنات الأخرى. فنحن محكومون بنوعية أعمالنا، ونستسلم للتقنيات الحديثة بسهولة مما يجعلنا نساهم في تخريب حياتنا اليومية بالحرص على تضييع أوقاتنا بانتظام، وعلى تغيير أنماط عيشنا وفق ساعات آلية نتركها تتحكّم بنا.

ونحن لاندرك أهمية التوقيت الداخلي إلاّ بعد أن نحاول التكيّف أو نُقسَر على التكيّف مع دورات نشاط غير طبيعية. وهذا مايعانيه أهلنا في الأرض المحتلة حيث يتوقّعون حالة الإيقاظ المفاجئ في أي ساعة من الليل أو النهار.

وإذا كان الشعور بالوقت يمتد عند كبار السن والمرضى والسجناء حيث يتألّمون من ثقله ووطأته وبطئه، فإنّ المحب يشعر بسرعة الوقت السهمية الخاطفة مما يدعوه إلى تمنّي تثبيته ليبقى يحظى بالسعادة التي ينالها مع من يحب.

أما الذين ينتظرون نتيجة شيء ما فإنّهم يرون الدقائق تتمطّى وتمط عقارب الساعة أرجلها ببطء قاتل. فما الذي يمكن أن يُقال عن الوقت الذي هو كالسيف، وعن أهمية اغتنام الفراغ قبل الشغل؟

وكم من الوقت نحتاج - نحن العرب - كي نستعيد سيرتنا الأولى في كوننا خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟

لو أننا فكّرنا بالوقت اللازم لنا لذلك لامتنعنا عن فعل أي شيء، ولكنّ الأمل يحدونا بأن الوقت الضائع في قراءة هذا الملف هو أقل من الوقت الضائع في كتابته، وعسى أن يكون الخوض في هذه الإضاعة حافزاً لنا كي نكفّ عن الاستهتار بالوقت حتى نمحو صورة المثل الشائع (وعد عربي) اعتاد صاحبه أن يبحث عن سبل لقتل الوقت البريء.

ألا فلنبدأ هنا والآن وبنا ثم ليكن مايكون.

الهروب المستحيل

يحاول الموت أن يذكّرنا بقرب مجيئه فنذكره ثم نتناساه.. كلما اصطدمنا بحالة موت إنسان عزيز أو قريب منّا نقف مدهوشين وكأنّها المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا الشيء الغامض.

ونتصرف دائماً وكأننا قادرون على إيقاف واقعة الموت وقد نستعجله مع زهير بن أبي سلمى قائلين:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعـش ثمانين حولاً – لا أبالك – يسـأمِ

ولكن هيهات لمؤجّلي استعدادهم له، فإذا تريثوا هم ليس للموت صلاحية في تأجيل مجيئه ولا قدرة له إلاّ الامتثال لأمر ربه { **إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون** } إنما هو مكلّف بعمله كما شاء الله لاكما يظن / زهير/ بأنه يضرب يمنة ويسرة فيصيب من يصيب وينجو من ينجو:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهـرمِ

إنما يمرالموت في وقت محدد لكل نفس فيقطفها بحيث لايوفر أحداً على مدى الدهر ليجسّد المساواة الكاملة بين البشر { **كل نفس ذائقة الموت** } بغير استثناء ولا وساطات، وحتى الأنبياء ذاقوا هذه الواقعة التي تكاد تكون الفعل الديمقراطي الوحيد الكامل الذي لايقبل الرشاوي ولا تنفع معه الحيلة ولا يملك مكيالين ليفرّق بين غنيّ وفقير أو حاكم ومحكوم..

لايمكن أن نستهتر بالموت أو أن نتناساه، وإنما يحسن بنا أن نستعدّ له بوصفه جسراً للانتقال من عالم إلى عالم كما ينتقل الجنين من رحم الأم ليغدو طفلاً في عالم أرحب. حين ينتقل الطفل إلى عالم الحياة يبدأ بالبكاء على محيطه الذي ألِفَه غير راغب في مفارقته، لكنّه يتلقى الصدمة الأولى بالانفصال عن حبل السرّة، فإذا جاء إلى الدنيا ألفها وأحبّها ورغب عن مفارقتها حتى أنه يتهيّب من فقدانها والانتقال إلى عالم آخر تصفه الأديان بأنه الأجمل { **الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور**} لكنّه يبقى عالماً رهيباً وتتبع رهبته أم كونه عالماً غامضاً يجب أن نحبّه رغم غموضه بدلاً من محاولة الهرب منه من غير جدوى كما لاحظ الإمام الشافعي:

ومـن نزلـت بساحتـه المنايـا فـلا أرض تقيـه ولا سمـاءُ

لقد جرّب / جلجامش / أن يهرب من الموت ويبحث عن سرّ الخلود بعد أن فُجع بفقدان صديقه /أنكيدو/ لكنه فشل.. وفشل كثيرون قبله وبعده في التملّص من تلك الكأس الواجبة على الكائنات جميعها والتي هي رحمة لهم { **محبة أبدية أحببتك من أجل ذلك أدمت لك الرحمة** }.

والأحرى بنا أن نرحّب بتناول تلك الكأس فرحين لأن الحياة التي لاتنتهي تصيب المرء بالضجر تماماً كما الكتاب الضخم الذي يستغرق زمناً خرافياً لقراءته، وكالعمل الطويل المرهق الذي ابتلي به /سيزيف/ في رحلة عذاب أبدية. ألا تصبح الحياة الطويلة مصدر إزعاج مستمر لنا، تحفّ بها الأمراض من كل جانب ونعتاد خلالها العالم حتى الضجر؟!

بل ألا يتمنى حينذاك كل من حولنا بأن تنتهي حياتنا لنتخلّص ويتخلّصوا معنا من حياة معذبة لاجدوى منها ؟

وإذا كنا جميعاً نقرّ بحتمية الموت وبكونه رحمة للإنسان فإننا في جهة أخرى نستبعد ضمناً أن ذلك سيحدث لنا ذات يوم.

وبما أن الموت واقعة حتمية ألا يكون الأجدى لنا أن نعيش حياتنا بأسلوب نتعلّم فيه كيف لايكون الموت مخيفاً من خلال اصطحابنا وثائق نظامية وعدّة كافية للرحلة الأخيرة.. عدّة تجعلنا نردّد بثقة قوله تعالى: { **ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية** } قبل أن يفوت الأوان؟!

رسالة العام الجديد

في نهاية كل عام تستعصي عليّ الكتابة.. الأفكار تتزاحم داخل الرأس الصغير، وتتشابك ذكريات العام لتدعوني إلى تشييعه... كلما حبت أواخر أيام العام زحفت إليّ أنياب الحزن.

وفي السنوات الأخيرة أضيف الانقباض إلى الحزن بحيث غدا ذيل العام كرأسه،أسعى جاهداً كي ألفّق ساعاته وأمضي، نتيجة الخصام بيني وبين /ريكا/ التي تسعى أمها لنشر الفساد في العالم بحجة مناصرة حقوق الإنسان.

بين عامين أحرص على السير تحت انهمار المطر كي أوهم نفسي بأنني أغتسل من أدراني حيث تبكي السماء على أحزاننا وعلى ضعفنا الإنساني المتواصل...

صوت المطر المتهالك تحت عجلات المركبات يفجّر في داخلي القنابل التي تتساقط كل يوم على الأبرياء في العالم فتختلط دموعي بدموع السماء.

أبكي لأنني تعثرت كثيراً خلال العام الذي تدقّ أجراس رحيله، ولأنني لم أستطع تحقيق الكثير من أحلامي، ولأن الآخرين حالوا بيني وبين تحقيق ماأصبو إليه.

ألم أكن أيضاً سبباً في تحطيم بعض أحلام الآخرين.

ربما أكون قد سحقت نملة تسعى في رحلتها الصيفية فقضيت على أحلامها وأنا أحثّ الخطا مسرعاً كي لاأفوّت فرصة للنجاح.

لذلك أبكي ..

وأبكي أصدقائي الذين اضطرتهم الظروف لخيانتي وتحويلي إلى مجرد وسيلة للوصول إلى مايبتغون.

وعندما ينتهي العام ويبدأ عام جديد، لاتنتهي المأساة.

ففي العام الجديد نبكي لأنّ مجرد ولادته تعني أنه – لابد – مائت.

فكيف نستقبل العام الجديد ؟

في كل مناسبة أعدّ العدّة للاحتفال بها، وأتلقى الدعوات، ثم أجدني منخرطاً في عمل متواصل حتى الصباح.

والطريف في الأمر أن أعمالي كلها من منطلق ذاتي، لاتوجد جهة تطالبني بما يجب عليّ القيام به، ولا وقت يحكمني كي أنجز ماأباشره من أعمال، وكل مافي الأمر أنني أشعر بتفاهتي حين لايكون لدي ماأنجزه، ولهذا ألهث دائماً كي أبرّر وجودي.

في رأس السنة، ويوم ميلادي، يوم زواجي، ويوم تخرجي من الجامعة، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر...

في كل تلك المناسبات أجدني منشغلاً بعمل طوعي أحبّه،، ولأنني أحبه أشعر بالرضى حين تمرّ المناسبة وأنا منهمك فيه.

قد يمرّ ماأقوله عابراً على رئيس التحرير والمنضّد والطابع والقارئ .. ربما يظن رئيس التحرير أن هذه الكلمات مجرد هذيان فارغ، وربما يهمل المنضّد عدداً من الفواصل والشدّات، وربما بعض الكلمات...

فما الذي سيحدث إذا اختصرنا المقالة إلى النصف ؟

وربما يطمس الطابع مقالتي أو بعضها فلن تخرب الدنيا إذا كانت بعض المقالات مشوّهة..

وربما يكتفي القارئ بتصفّح العناوين، وحين يلمح بعض الغبار، يلفّ المقالة ويمسح بها حذاءه ليظن أنه غدا بمظهر لائق.

ياأنتم.. يا الذين يمرون بي وأمرّ بهم، ماننتجه ليس ترفاً أو بضاعة لاتفيد، إنه عصارة القلب وبعضٌ منا..

أرجوكم لاتستهتروا بالكلمة، إنها قصصكم وحكاياتنا، وربما نفد شيء منها إلى عقولكم وقلوبكم لتساهموا في احترام الإنسان الذي أمر الله باحترامه ..

إنها على مدى العام، الشأن العام الذي يعنينا مباشرة.

بالكلمة تقوم الحروب، وبها يعمّ السلام.. بها نتميّز أم عن سوانا من الكائنات، وبها يعني لنا مطلع العام شيئاً جديداً ...

العام الجديد مناسبة كسواه من المناسبات لايغدو لها معنى إلاّ إذا عاهدنا أنفسنا على القيام بكل مايعزّز احترامنا لأنفسنا أمام أنفسنا قبل سوانا .

أرجوكم لاترموا أحمالكم على الآخرين، ولا تظنوا أن مايحدث في غواتيمالا والسودان وأفغانستان والعراق والصومال والهند وباكستان وفلسطين بمنأى عنكم.

إننا نسهم إيجابياً في إشاعة الخير انطلاقاً من مواقفنا وأعمالنا، وكل مانقوم به يؤثّر على مايحدث في الكون...

فهل نجرّب في مطلع العام الجديد بأن نبتسم – من قلوبنا – للآخرين ونعمل معهم بإصرار على مكافحة كل ماهو فاسد، بدءاً من ذواتنا قبل أن نطالب الآخرين؟!...

هذه هي الرسالة التي وشوشتني بها شجرة الميلاد في العام الجديد، فهل من مستجيب؟!...

* * *

أمنية العام الجديد

سأجاهد للحصول على قرض عقاري.. أتحمل الفوائد الباهظة وغرامات التأخير، وأتخلّى عن راتبي لمدة خمسة عشر عاماً للتسديد. كل ذلك كي أسافر إلى أمريكا .. ليس حبّاً بزيارة الدولة التي غدت تصدّر الشر، ولكن كي أجري حواراً مع رئيسها، ليس رغبة في الحوار، ولكن كي أصل إلى خاتمة الحوار لأسأل الرئيس الأمريكي السيد بوش الابن:

– كم مرّة رأيت أسامة بن لادن في نومك خلال عام ٢٠٠١ سيادة الرئيس؟

لو لم أكن عربيّاً

لو لم أكن عربيّاً كنت تجنّبت كثيراً من المخاوف، وكثيراً من لحظات الذلّ، وكثيراً من الإحباط، وكثيراً من الألم.

أخاف عندما أكتب، وعندما يُنشر لي مقال، وعندما أطلب وثيقة رسمية من إحدى دوائر الدولة.. وذلك لأن كل تلك الأفعال تستوجب السؤال عني.. وتستدعي أن أملأ استمارات كثيرة عن حياتي الشخصية،أسجّل فيها حتى الدقائق الصغيرة، فضلاً عن الأحزاب والجمعيات التي أنتمي إليها، والمدارس التي تنقّلت فيها، والشاعر الذي أحبّه، والصحف التي أقرؤها، والألوان التي أفضّلها ... ولأن الجهات التي يهمها أمري كثيرة، فإن ذلك يتطلب مني الحديث مع أربعة أو خمسة أشخاص من دوائر (الاستفسار)، كما يتطلب مني – كلّ مرّة – ملء الكثير من الاستمارات التي أدوّن فيها الشيء نفسه حتى أكره عمري نتيجة تذكّري المستمر للمآسي التي مررت بها عبر العقود الماضية.

وأخاف من عيون الأقرباء والأصدقاء والجيران الذين يسألهم المستفسرون عني ويظنّون في كلّ مرة أنني ارتكبت جريمة أو قمت بعمل شنيع.

ولأنني لاأحب هذا الخوف المستمر حتى لاتتشكل لديّ عقدة الاضطهاد، لذلك أمتنع عن تقديم طلب للحصول على هاتف، أو ساعة كهرباء، أو حتى صندوق بريد...

هذا عن حالة الرعب التي تجعل الإرهاب صورة دائمة التراقص في مخيّلتي، أمّا عن لحظات الذل، فهي كثيرة والحمد لله، بدءاً من ركوب الحافلة، مروراً بالحصول على مواد بطاقة التموين والراتب الذي يتظاهرون بأنهم يدفعونه لنا لذلك يلاحقني الجميع باستمرار كي أعمل بجد وبشكل متواصل من غير تذمّر أو ملل. صحيح أن كثيرين من زملائي في الدائرة لايعملون، لكن هذا الأمر لايعنيني فرؤسائي الكثيرون، الذين يشكّلون هرماً يطحنني، يعرفون مصلحة البلاد العليا وهم الذين يوزّعون الأعمال والأدوار وما عليّ سوى القيام بواجباتي كاملة.

أنت موظف قم بعملك بصمت... ولا تنسَ : لديك واجبات تجاه الأسرة .. الأصدقاء.. الزوجة.. الحارة.. الاتحاد.. الإرهاب الدولي.

واجبات .. واجبات .. (ينبغي لك)... (يجب عليك).. أما ماهو لك.. وما هي حقوقك.. فهذا يأتي في آخر سلّم الأشياء التي يُنظر في أمرها.

كل المؤسسات تقول: بيننا وبينك عقد إذعان... يمكننا أن نقطع عنك كل شيء متى نشاء، لكنك إذا لم تذعن ولم تدفع فإنك تضطّرنا لنقطع عنك: الماء.. الكهرباء.. الغذاء.. الراتب..

وأحمد الله أنهم لم يبتكروا – بعد – صيغةً لجباية استمتاعنا بالهواء. يكاد أن يكون الأكسجين هو الشيء الوحيد المجاني في العالم.. صحيح أنه ملوّث بما يشاؤون... ولكنه مجانيّ في نهاية المطاف.

الزوجة تقول: استخدمت كل الوساطات الممكنة للزواج بي.. ولي حقوق عليك.

الأولاد يقولون: أنت أبونا .. أنجبتنا إلى العالم وعليك أن تلبّي حاجاتنا كما يفعل الآباء الآخرون.

من يقول لأبنائي: القناعة كنز لايفنى، وأن بعض الآباء يسرقون.. ويرتشون.. ويستبيحون.. ويتطاولون.. وأنا لاأفعل مايفعلون؟..

لو لم أكن عربياً لتجنبت الذلّ الذي أعانيه عندما أنحني لركوب سيارة الأجرة وألتزم بتعليمات السائق ولوائحه.. وأنحني لأبناء العاصمة.. وأنحني للدول المجاورة التي تدفع للعاملين بها أكثر مما تدفعه دولتي، وأنحني للدول العظمى خشية أن يُفسّر رفع رأسي بالإرهاب.

لو لم أكن عربياً لما عانيت من الإحباط وفقدان الأمل من القضاء على الأمراض الكثيرة المنتشرة في بلادنا .. والمجاعة.. وتدنّي مستوى الدخل .. من يعمل عملي في دولة غير عربية، تحترمه الدولة وتقدم له كل المساعدات وتوفر له أسباب الراحة والهناء من أجل مزيد من الإبداع .. ولكنّني عربي.

لو لم أكن عربياً لتجنّبت كثيراً من الآلام، لكنّني، والحالة هذه، لاأقدر على مصروفات الفحص الطبّي الدوري وصور الأشعة والتحاليل، ولا ثقة لدي بالطبيب المعالج الذي لاأراه سوى تاجر يهتم بالابتزاز ولا يهمه من المريض سوى جيبه المنتفخ. أما في الدول الأخرى، فالمواطن إنسان، يعامَل معاملةً إنسانية محترمة، يُعالَج مجاناً بأفضل أدوات ومعدات طبية حديثة، ويشرف على شفائه وعلى صحته مجموعة متميّزة من الأطباء المتخصصين، ولا همّ لهم سوى قهر الأمراض والآلام.

ولكنني عربي...

والأغرب من ذلك كله أنني أحب أن أكون عربياً، وأحب العالم لأنني عربي.

أحب أنني عربي.. لأنني لو كنت (أفغانياً) كنت عانيت الأمرّين بين معاداة (طالبان) و مناصرة (بن لادن) الذي بشّرني بعالم إسلامي صافٍ لاشيء فيه يعلو على كلمة الله، ثم وجدتني أُقصف وأقربائي في جحيم أرضي لاينتهي لأن بلادي صارت عنواناً لمناصرة الإرهاب.

ولو كنت (أفريقياً) كنت عانيت من التمييز العنصري الفاحش، والصورة القاتمة التي أظهر عليها في الإعلام الغربي.

ولو كنت (أوروبياً) كنت عانيت من الذل الخفي الذي تضعني بلادي في قلبه حين تجعلني إمّعة لأمريكا.

ولو كنت (أمريكياً) كنت صُعقت من هول مفاجأة الحادي عشر من أيلول حين ضُربتُ في عقر داري واكتشفت مدى الزيف الذي نعيشه في ظل دولة تدّعي القوة والحضارة ثم نكتشف أننا مواطنون جهلة لانعرف إلى أين تسير بلادنا ولا مدى الظلم الذي توقعه على الآخرين، ولا المدى الذي تتمتع به رموز الصهيونية من قدرة على تحريك هذه الأمريكا التي تضمّ مواطنين نائمين في سبات عمره عقود ولا يعلمون أنهم غافلون.

لذلك كله أحب أبي الذي لم يغادر الوطن، وأحب أن أكون عربياً وأن أموت وأنا عربي.

بالرغم من الخوف والذل والإحباط والألم، بل من أجل التغلّب على ذلك كله، سأجيب على كل الأسئلة والتساؤلات التي تطرحها دوائر الاستفسار، وسأبقى لاهثاً لإثبات أنني وطني يحب بلاده وزوجته وأسرته وأصدقاءه وجيرانه، يقوم بكلّ واجباته.. ويبقى مصرًّا على ترك أثرٍ طيّب ورأي واضح حتى في مناصرة المظلومين من أهل بلاد (الواق واق).

لو لم أكن عربياً.. ولو لم أكن أحب كوني عربياً.. لفقدت كثيراً من احترامي لذاتي. لكنني – بالرغم من كل الذين يبرّرون قهري– عربي يفخر بانتمائه إلى العروبة، ويعتزّ بانتمائه إلى الإسلام الذي لم يكن يوماً عنواناً للاعتداء، بل هو الدين السمح الذي جاء بلسان عربي ينادي بالمحبة والسلام والحرية، وينادي باحترام الإنسان.

المغدورون

لأنه كان يعمل بصمت، يعاني من غير تذمّر أو كلل، ينجز أعماله وأعمال زملائه... يبتسم في وجوه الصغير والكبير ويخجل من الرفض... لذلك زادت مهامه وأعباؤه وصار مطالباً بمضاعفة أوقات العمل والإنجاز...

حين اتضحت زيادة الأرباح في الشركة، دعا مدير الشركة إلى وليمة فاخرة ضمت كلّ العاملين... ماعداه.

*　　　*　　　*

عمل بدأب على إنجاح أعمال الندوة العالمية.. اقترح أسماء المشاركين واتصل بهم وبأصحاب الخبرة، نظّم تعاوناً كبيراً بين مجموعة مؤسسات لتغدو ندوة لائقة .. وضع البرنامج.. نظّم اللقاءات.. صاغ التوصيات. حين نضجت الفكرة وتحوّلت إلى التطبيق، نشرت الصحف برنامج الندوة وأسماء المنظّمين والمشاركين... ولم يكن له اسم بينهم.

*　　　*　　　*

موجع أن تكون أليفاً إلى حدّ التهاون، وموجع أكثر أن تستكين حرصاً على فتات تحتاجه... أما الكارثة فهي الدونية التي يحرص الآخرون على رؤيتها في عينيك، تعويضاً عن نقص يشعرون به تجاه إنجازاتك التي تستحيل عليهم.

*　　　*　　　*

في زمن الأشنيات والطحالب والنباتات الطفيلية، ماعلى الياسمين إلاّ الصمود، لأن شذاه – بالرغم من ذلك كله – يملأ الكون بالعبير.

*　　　*　　　*

إننا راحلون.. مع أفراحنا وأحزاننا راحلون. أما أنت.. يامن تعمل بصمت، طوبى لك لأنك تفقأ أعين الغادرين بابتسامة مشرقة.

إنك تعلم جيداً أن الحكّام المستبدين يموتون... أرباب العمل الظالمون يموتون.. الأثرياء يموتون.. الذين يدوسون الآخرين ليصلوا إلى القمة، يموتون...

ولكنّ الحكماء .. الذين – أيضاً – يموتون.. تحرص الأجيال المتعاقبة على تمجيد مآثرهم النبيلة.

لاتبتئس... أنت في الدائرة

إذا كنت كاتباً مرموقاً واضطرتك الظروف إلى العمل على المصعد في إحدى الصحف، لاتبتئس.. إن لرئيس التحرير أسبابه الوجيهة التي تدعوه إلى تقريب الأميين من أجل العلاقات العامة والمقاولات والصفقات.. والافتتاحيات.

لاتبتئس لأن شخصاً آخر عاطل عن العمل ويحسدك على ماأنت فيه.

وإذا كنت عاطلاً عن العمل، لاتبتئس.. لأن شخصاً آخر غارق في الديون حتى أذنيه ولا يعرف كيف يدفع أقساط المصرف العقاري ليرفع الحجز عن بيته.

إذا كنت مديناً من أجل بيتك، لاتبتئس.. لأن شخصاً آخر لايملك غرفة من بيت.

إذا لم تكن تملك غرفة، لاتبتئس.. لأن شخصاً أعلن إفلاسه توّاً وغدا بلا مسكن ولا مال، والسندات التي وقّعها للآخرين ستوقعه في زاوية سجن مظلم.

إذا كنت مفلساً، لاتبتئس.. لأن شخصاً آخر يعاني من انتظار موت مفاجئ بعد أن أخبره الأطباء أنه مصاب بالسرطان ولم يبق أمامه من الزمن سوى أسابيع لتوديع الدنيا بمن فيها وما فيها ...

إذا كنت مصاباً بمرض خبيث، لاتبتئس.. والرحيل المبكّر أهون من أن تكون كاتباً يحرص الآخرون على تحطيم موهبته..

ستموت.. لابأس.. إنها نهاية محتومة لكل ولادة.. على الأقل لن تعاني الآن من البطالة أو الديون أو العيش بلا مأوى.

إن موتك يقيك من إفلاس محتّم في ظل الفواتير التي تلاحقك من كل حدب وصوب.

لاتبتئس.. إنك وحيد على الدوام.. وهذه الغربة تلاحقك في عالم لامكان فيه حتى لموت مريحٍ.

صرخة في واد

بعد بضعة شهور يكون قد مضى على اغتياله قرن كامل.

حياة لم تبلغ الخمسين مرّت برجل لم يعرف الكلل أو الملل في الدفاع عن المظلومين.

تحمّل مشقّة السجن والاضطهاد، ولم ينافق ويهادن. بل دأب على مقاومة الاستبداد ومناصرة الضعفاء بما أوتي من علم وشجاعة ومال.

توفيت والدته وهو في الخامسة من عمره، فغادر طفولته وامتشق شجرة المعرفة، ولم يكد يبلغ ريعان الشباب حتى فقد أباه، فاندفع إلى رفد أسرته الصغيرة بمحبة مواطنيه، يرعاهم ويردّ عنهم المظالم ماستطاع، حتى لُقّب بأبي الضعفاء وارتفع صوته حتى بلغ الآفاق، ولمّا لم ينفع السجن والترهيب في إخماد ثورته على الاستبداد، بادرت الحكومة إلى إغرائه بالمناصب مرة تلو أخرى.

غير أن النفس الأبيّة فيه عافت المناصب ودفعته إلى محاولة الإصلاح في كل عمل تسنّمه، مما أغضب الولاة الذين ارتبطت مصالحهم بالفساد. ولمّا ضاقت السلطنة العثمانية عليه، هجر موطنه واتّجه إلى مصر.

لكنَّ مصالح الحكام المترابطة – في زمن الفساد – من مشارق الأرض إلى مغاربها، لحقت به وأوقفت ذلك القلب الذي يحرّك القلم واللسان. امتدت الأيادي الآثمة إلى فنجان قهوته فدسّت له السم ثم راحت تصادر آثاره وتلاحق من يجرؤ على قراءة ماخطّت يداه.

مات عبدالرحمن، لكنّ أفكاره النيّرة ماتزال هادياً للمستضعفين في الأرض، ونبراساً للمناضلين في كل مكان.

وما تزال المدرسة الكواكبية تلد أجيال حماة الحرية الذين مافتئوا يتداعون إلى نفض الغبار المتراكم على قبره كناية عن رغبتهم في إحياء فكره من جديد، كي يستمر النضال النزيه في وطن يبحث عن منفذ للنجاة من تكلّسه في أودية التخلف والاستبداد.

قرن مضى على وفاة الكواكبي، وما زلنا نحلم بتحقيق ماكان يصبو إليه.

قرن مضى وما تغيرنا... وما تغيّر واقعنا... وما نلنا بعضاً من الحرية التي تتشدق بها الحكومات والدول التي تواري حفاظها على إرثها الاستبدادي، بإطلاق شعارات الحرية.

تلك الحرية المسجونة في الدساتير والمواثيق، ويحرص أولو الأمر على إبقائها حبراً على ورق.

ألم يئن أوان نزع اللجام عن ذواتنا كي نشعر بإنسانيتنا في وطن نحرص على فك أسره كي نواصل الاعتزاز به ؟

ألم يحن وقت الاستقلال الفعلي كي تتمتع دويلاتنا باتخاذ القرارات التي تناسبنا بعيداً عن هيمنة (الكاوبوي) الذي لايفرغ مسدسه.. ولا يموت؟

ألا يحق لنا أن نصطف متراصّين في وجه (البوشيّون) الذين يظنّون أن المسرحية لن تنتهي، وأن طفلهم المدلل (شارون) سيبقى كالفأر يحفر تاريخنا كي نجدّف في العراء ؟

هذا الفأر الشاروني الذي يتفاخر خلف الحصان البوشي، لن يغرق في مستنقع أفعاله مالم ننهض لنتكوكب في مدرسة الكواكبي التي تدعو إلى التخلص من الاهتراء المزمن الذي نعانيه في واقعنا الراهن.

فهل نبدأ السنة الثانية من القرن الحادي والعشرين بتسمية هذا العام عام الكواكبي وأقرانه كيما نحاول النهضة من جديد، أم تبقى أفكار أجدادنا صرخة في واد ، تذهب اليوم مع الريح، ثم لانجرّب غداً أن نجعلها تذهب بالأوتاد ؟

الفهرس

الموضوع- **الصفحة**

د.محمد جمال طحان

مواليد مدينة حلب ١٩٥٧

* دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس

*عضو اتحاد الكتاب العرب- عضو اتحاد الصحفيين.

* عضو رابطة الكتاب السوريين الأحرار.

*عضو رابطة الصحفيين السوريين الأحرار.

* أستاذ تاريخ الحضارة والفكر العربي الحديث في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (info).

* مستشار التحرير في مركز آفاق العرّاب الإعلامي في الرياض(٢٠١٢ ومايزال....)

*محرر في صحيفة تشرين (مكتب حلب) - مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر(٢٠٠٧-
فصل عام ٢٠١١ إثر اعتقاله في المخابرات الجوية من ٢٠١١/٧/١٨حتى ٢٠١١/١٢/٢٣
.

*محرر في موقع ذاكرة وطن Esyria (٢٠٠٧-٢٠١١)

*مدير تحرير مجلة(العاديات) منذ صدورها ، رئيس لجان الثقافة والمعلوماتية والإعلام في جمعية العاديات(٢٠٠٣- ٢٠٠٨)

*مدير المركز الإعلامي لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية (٢٠٠٦ -٢٠٠٧)

* يسعى لإنجاز مجموعة من الأبحاث حول الثقافة والفكر العربي المعاصر.

* ألقى العديد من المحاضرات وشارك في بعض الندوات الفكرية حول مسائل معاصرة في عدد من الدول العربية والإسلامية .(الأردن- لبنان – المغرب- إيران- تركيا – الإمارات- مصر- اسبانيا – الجزائر- السعودية – ألمانيا - سورية ..

*له ثلاثة وثلاثون كتاباً مطبوعاً في الفكر والنقد والشعر والقصة. (في سورية ولبنان والمغرب والإمارات ...)

* نشر له ما ينيف عن ألف مادة بين الدراسة والنقد والقصة والشعر في الدوريات العربية المختلفة.

*مشرف على منتديات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية في مواقع كثيرة.

* أعدّ بعض البرامج الثقافية في إذاعة صوت الشعب من دمشق.

*أشرف على ملف اسبوعي في جريدة الجماهير بحلب تحت عنوان " قضايا فكرية وأعلام" (٢٠٠٠-٢٠٠٢م)

* المنسق العام لملتقيات القصة القصيرة جداً منذ عام (٢٠٠٢- ومايزال .

* نال بعض الجوائز المحلية والعربية، منها:

- جائزة الباسل التي تمنحها رئاسة مجلس مدينة حلب عن مجمل الأعمال (عام ٢٠٠٠).

- الجائزة الأولى في الشعر في مسابقة محافظة حلب (عام ٢٠٠٠).

- الجائزة الثانية عن السيرة القصصية في مسابقة ثقافة الطفل العربي (أبو ظبي) (عام٢٠٠٠).

*عضو في لجان تحكيم عدد من المسابقات) في الفكر والأدب .

* أمين عام جائزة الشيخ كامل الغزّي.للأبحاث التراثية .

*أمين عام جائزة الدكتور نعيم اليافي للأبحاث النقدية